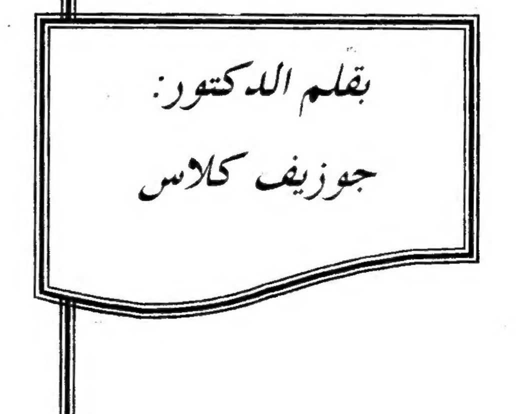
من تاريخ دمشق المدينة المقدسة



أرض معطاء، وماء عذب نمير، ربيع دائم، وحضارة فذة، تلكم هي دمشق أقدم عاصمة مأهولة، عرفها الإنسان.

وإذا أردنا عودة إلى أيام ولادتها وطفولتها الأولى ورحنا نستشف حجب التاريخ لنحدد يوماً معيناً لهذه الولادة لوجدنا أن يوم الولادة سر من أسرار الماضي السحيق اختلفت فيه النظريات وتضاربت الأقوال. لقد أظهرت حفريات أثرية جرت عام ١٩٥٠ في تل الصالحية الذي يقع في الجنوب الشرقي في دمشق بعض المخلفات العمرانية التي تعود إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، كما أن مخلفات عصر البرونز فيها ونظام الري والسقاية الذي كان يتبع دليل على أن إنسان دمشق في هذا العصر، أي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، كان صاحب حضارة متطورة راقية وصلت إلى ما وصلت إليه خلال مسيرة هادئة متطورة نقلت الحياة من بداوة وابتدائية إلى الاستقرار والتقدم.

وتدخل دمشق نور التاريخ بعد أن أصبحت اسماً متداولاً في الوثائق والنقوش، إذ تذكرها ألواح تل العمارنة بأنها من المدن التي افتتحها الفرعون تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد الذي دانت له سورية إذ ذاك لبعض الوقت.

وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد غدت دمشق حاضرة للمملكة الآرامية الزاهرة، وشقت فيها الشوارع المستقيمة المتقاطعة عمودياً، كما كانت عليه شوارع بابل وآشور

في الألف الثانية قبل الميلاد. كما قام الآراميون بشق القنوات وتنظيم الري فيها، وجعلوا نهر تورا - ذا الاسم الآرامي - يسقي القسم الشمالي والشمالي الغربي من المدينة.

وحين قام الإسكندر الكبير بحملاته المظفرة سنة ٣٣٣ ق.م واستولى على هذه البلاد، خلعت دمشق النير الأخميني الفارسي وأصبحت منذ ذلك الحين وحتى الفتح العربي الإسلامي تابعة لنفوذ الهلنستيين الغربيين.

وقد ظهر التأثير الهلنستي في عمرانها وثقافتها وأخذت الشخصية الجديدة تطبعها بطابعها ذات أروقة ما تزال بعض آثارها باقية حتى الساعة في الناحية الشرقية من الجامع الأموي.

ولم تأت سنة ٨٥ ق.م حتى وقعت دمشق تحت نفوذ الأنباط العرب في عصر مجدهم وقوتهم زمن الحارث الثالث. وقد أقام السادة الجدد حياً لهم في شرقي المدينة دعاه مؤرخو العصور الوسطى بالنيبطون، كما شقوا فرعاً جديداً لبردى في سفح قاسيون ظل موجوداً حتى زمن الأمويين الذين أعادوا كريه وتنظيفه ودعوه بنهر يزيد نسبة إلى الخليفة الأموي الثاني.

لما أعلن القائد الروماني بومبي سورية مقاطعة رومانية وذلك سنة ٦٤ ق.م، لم تكن دمشق عاصمة هذه المقاطعة بل كانت عاصمتها إنطاكية. وفي الفترة بين سنتي ٣٧ - ٥٤ من التاريخ الميلادي عادت دمشق تخضع للنفوذ النبطي زمن الحارث الرابع بمباركة روما وموافقتها وإلى هذه الفترة الجديدة من الحكم النبطي ترجع زيارة شاؤول، الذي سيعرف فيما بعد باسم القديس بولص، إلى المستعمرة اليهودية في المدينة، هذه الزيارة التي سيتعرف أثناءها على حنانيا الذي سيهديه للنصرانية، وحنانيا هذا هو صاحب كنيسة حنانيا التي اكتشفت عام ت١٩٢١، وما تزال قبلة الزوار حتى يومنا هذا.

وأرادت روما أن تؤمن للمدينة الحماية اللازمة من هجمات البدو الغزاة الذين كانوا يداهمونها بين الحين والآخر، فأحاطتها بسور يطوف بها من كل جهاتها ويجعل لها شكلا رباعياً له سبعة أبواب ينفذ منها إلى داخل المدينة. وهذه الأبواب هي: من الجهة الشرقية الباب الشرقي، ومن الجنوب باب كيسان والباب الصغير، وفي الغرب باب الجابية، ومن الجهة الشمالية باب الفراديس وباب جينيق وباب توما. وما تزال آثار هذه الأوابد ماثلة للعيان حتى اليوم.

وكيما يؤمن الماء النقي لسكان المدينة أقيمت القنوات (في الحي المعروف بهذا الاسم حتى اليوم) التي ما تزال صالحة للاستعمال. أما معبد المدينة الرئيسي الذي كان يدعى في العصر الروماني معبد جوبيتر الدمشقي والذي كان قبلاً معبد حدد إله العاصفة. فقد دخلت عليه في القرنين الثاني والثالث الميلاديين تعديلات كثيرة ما تزال آثارها باقية في بعض جدران المسجد الأموي إلى اليوم.

وعندما حلّت بيزنطة محل روما دخلت سورية في عداد البلاد الخاضعة لها، وأضحت دمشق محطة أمامية للإمبراطورية الجديدة، وتطور عمرانها تطوراً يتناسب ومعطيات العصر، وظهر عنصر الكنائس الذي كان عنصراً غريباً عن روما الوثنية وابتدعته الإمبراطورية الجديدة التي اعتنق مؤسسها قسطنطين الكبير الديانة المسيحية بعد قرار ميلانو المشهور سنة ٣١٢م.

كانت أولى كنائس دمشق الكنيسة التي قامت مكان معبد المدينة القديمة (معبد جوبيتر) والتي نسبت إلى القديس يوحنا المعمدان، الذي ما يزال مقامه موجوداً ضمن مسجد بني أمية الكبير والذي يعرف باسم مقام سيدنا يحيى ويوليه المسيحيون والمسلمون على السواء الاحترام والتقديس. كما أقيمت كنيسة باسم كنيسة القديسة مريم على نفس أرض بطريركية الأورثوذكس اليوم.

إن الضعف الذي منيت به إمارة الغساسنة في بلاد الشام، هذه الإمارة التي كانت تابعة لبيزنطة وممثلتها في هذه البلاد، والحروب التي قامت بينها وبين إمارة المناذرة التابعة للفرس في القرن الرابع الميلادي، قد أضعفت سورية بوجه عام وأضرت باقتصادها. فاستطاع الكسرى الفارسي خسرو الثاني سنة ٦١٢م أن يحتل دمشق. وقد ساعد خسرو على تحقيق هذا النصر ان سكان الشام كانوا من النصارى اليعاقبة الذين كانوا يكنون عداءاً دينياً شديداً للبيزنطيين الذين رفضوا فكرة الطبيعة الواحدة واتبعوا المذهب الأرثوذكسي الذي يقول بالطبيعتين.

واستمر الفرس يحكمون دمشق حتى موت خسرو سنة ٦٢٧ وقام الإمبراطور البيزنطي هيراكليوس بتحرير سورية وفلسطين من النير الفارسي.

وجاء الفتح الإسلامي لبلاد الشام سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤م، ووصلت طلائع جيش خالد بن الوليد إلى مشارف دمشق وعسكرت في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، أو قرب قبر الشيخ رسلان حالياً على حد زعم بعض الروايات.

وكان سكان المدينة على مختلف شيعهم وأهوائهم لا يكنون حباً كبيراً لبيزنطة ويودون التخلص من حكمها فوجدوا في قدوم الجيش العربي الإسلامي الفرصة السانحة فتوجه إليه وفد من نبلائهم يضم كبار رجال الدين المسيحي والمسؤول المالي في المدينة منصور بن سرجون والد يوحنا الدمشقي وغيرهم، وفاوضوا على استسلام المدينة للفاتحين بشروط تضمن سلامة الأهلين وعدم الإضرار بهم وبمدينتهم.

وفي رجب من عام ١٤ هـ الموافق لأيلول من عام ٦٣٥م، فتح الباب الشرقي أمام جيوش العرب وانسحبت جيوش بيزنطة نحو الشمال. ويقول ابن عساكر في تاريخ أن خالداً دخل من الباب الشرقي شاهراً سيفه، وأن أبا عبيدة بن الجراح دخل من باب الجابية بعد أن

أعطى المدينة الأمان، والتقى القائدان في وسط الكنيسة.

وقد ضمن المسلمون للدمشقيين في الأمان الذي أعطوهم إياه حرية امتلاك أرضهم ومساكنهم وكنائسهم، وفرضوا عليهم مقابل ذلك الجزية الواجبة على الذميين.

ويعتبر سقوط دمشق بيد العرب المسلمين من أعظم الحوادث أثراً وأهمية في تاريخ المدينة، إذ أنه وضع حداً لحكم غربي عليها دام ألف عام وفتح صفحة جديدة عادت فيها المدينة إلى أحضان أهلها وذوي قرباها العرب الساميين.

واستقبل سكان المدينة فاتحيهم بالترحاب الكبير لما بينهم من وشائج قربى في العرق واللغة والدين، وأخذت منذ اليوم الأول علائم التقارب والتمازج تتوضح وتستبين.

وقد عين الخليفة عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان والياً على دمشق بعد فتحها، وعلى فلسطين، وأخذ الفاتحون يتخذون لسكناهم المنازل والأماكن التي هجرها سكانها البيزنطيون. ودهش الفاتحون لجمال المدينة وعظمتها فوصفوها بشامة الدنيا، واضطر بعضهم لضيق أماكن السكن فيها لاتخاذ معسكرات لهم في منطقة الجابية.

وما لبثت المدينة أن أخذت صفة قدسية في نفوس ساكنيها الجدد وأصبح لبعض مواقعها شهرة دينية عندهم كمغارة آدم في جبل قاسيون، ومغارة الدم حيث قتل قابيل، وكهف جبريل، وموضع ولادة إبراهيم في برزة وقبر موسى بن عمران في القدم، وغير ذلك من الأماكن ذات الأهمية. وأما عيسى بن مريم فكان من بين الأنبياء الذي أولوا دمشق ما تستحق من شرف، وقد جاء في كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر:

"وفي دمشق جبل يقال له قاسيون فيه قَتَلَ ابن آدم أخاه، وفي أسفله في الغرب وُلِد إبراهيم، وفيه آوى الله عيسى ابن مريم وأمه من اليهود، وما من عبد أتى معقل روح الله فاغتسل وصلى ودعا لم يرده الله خائباً. وفيه صلى إبراهيم ولوط وموسى وعيسى وأيوب. وقد صعد عمر بن عبد العزيز إلى موضع الدم يسأل الله تعالى السقيا فسقاه".

وتقول الروايات الدينية أنه سينزل في آخر الزمان على المئذنة الشرقية للمسجد الأموي التي تعرف باسم مئذنة عيسى ليحارب الدجال.

ولما كانت سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، أصيب يزيد بن أبي سفيان بالطاعون ومات، فخلفه في الولاية أخوه معاوية، وظل فيها جزءاً من خلافة عمر بن الخطاب وطوال خلافة عثمان وعلي حتى قام النزاع بينه وبين هذا الأخير، وكانت صفين والتحكيم وآلت الخلافة إلى معاوية هذا، فكان مؤسس بيت حاكم ظل أفراده يتربعون على سدة الحكم في الإمبراطورية العربية الإسلامية مدة تقارب القرن من عمر الزمان. واتخذ معاوية دمشق حاضرة لخلافته بعد أن كان علي قد نقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة، فغدت دمشق

من يومها الحاضرة الأولى في عالم الخلافة والقلب النابض للحضارة التي مدت ظلالها فيما بعد على جميع أرجاء العالم الإسلامي وغير الإسلامي.

ويجب أن نعترف هنا أن عملية طبع المدينة بالطابع العربي كانت عملية بطيئة وأخذت شطراً كبيراً من سني الفترة الأولى من فترات حكم هذه الأسرة وظلت اللغة اليونانية لغة دواوين الدولة – ما عدا ديوان الرسائل – حتى خلافة عبد الملك بن مروان الذي أمر بتعريب الدواوين كما هو معروف.

وفي ميدان العمران، كان التأثير العربي واضحاً منذ بدء الفتح إذ أن دار الخلافة والمسجد ظهرا أول ما ظهرا ليعطيا المدينة السمة الجديدة التي تتناسب مع الحكم العربي الإسلامي.

ففي خلافة معاوية حول مقر الحكام البيزنطيين الذي كان يقع في القسم الجنوبي الشرقي من المدينة في موقع سوق الصاغة اليوم إلى قصر للخليفة أطلق عليه اسم قصر (الخضراء) وأضيف إليه عدد من الأبنية لتكون مقراً لدوائر الدولة وموظفيها. وأقيمت إلى جانب القصر – الذي تحول زمن العباسيين إلى سجن – دار الخيل التي كانت مستقر من يأتي المدينة من مبعوثين أجانب.

وفي دمشق الأموية ظهرت أبعاد فن العمران العربي وأخذ شكله المؤثر في العصور التي تلت. ولم يقتصر عمل الخلفاء الأوائل على ميدان البناء والتشييد، بل اهتموا بقضايا الري والسقاية، هذه القضايا التي كانت موضع عناية حكام المدينة السابقين، ففي عهد يزيد الأول شق نهر يزيد الذي حمل المياه إلى الأراضي العالية، واتسعت مساحة الحقول المزروعة. والملاحظة الهامة هنا هي أن الفن العمراني في دمشق استفاد من استخدام الماء ووائم بينه وبين معطيات العمارة وجمع بينهما حتى صار الماء جزءاً أساسياً من حاجات البيت ووسائل تزيينه.

وقد أدت هذه العناية بالماء إلى انتشار الحقول واتساع الحدائق وبسوق الأشجار ولعل خير دليل على ما ندعي، ألواح الفسيفساء في المسجد الأموي التي تعود إلى هذا العصر والتي تمثل عمارات المدينة المحاطة بالأشجار والأزهار وجداول الماء.

وإلى عهد الوليد بن عبد الملك يعود أروع أثر من آثار فن العمارة الإسلامية، ألا وهو المسجد الأموي الكبير. ففي فترة حكم الفرع السفياني من الأسرة الأموية ظلت كنيسة يوحنا المعمدان، وهي المعبد المسيحي الرئيسي للمدينة زمن البيزنطيين، خارج حدود المسجد، ولم يصر معاوية ولا ابنه على ضمه للمسجد المجاور.

ويؤكد هذه الحقيقة الأسقف الغالي Aneulfe الذي مر بدمشق سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م، والذي يذكر أنه شاهد معبداً مستقلاً لسكان المدينة النصارى يجاور مسجد السكان المسلمين. ولكن توالي الأيام وازدياد عدد المنضمين إلى الإسلام في المدينة وهجرة

مسلمين آخرين إليها جعل مسجد المدينة الصغير، الذي لم يكن آنذاك أكثر من مصلى، غير كاف لاستيعاب الأعداد المتزايدة من المصلين. وشعر الخليفة عبد الملك أن لا بد له من توسيع المسجد وعرض على نصارى المدينة شراء كنيستهم الملاصقة للمسجد. وجرت بينه وبينهم مفاوضات انتهت بالفشل.

ولما كانت خلافة ابنه الوليد وأصبح أمر ضيق المسجد أزمة لا تحتمل التأجيل، بحث عن مكان يشيد عليه مسجداً جديداً فلم يجد لأن المدينة أضحت تضيق بساكنيها الكثر الذين توافدوا إليها من كل أصقاع الإمبراطورية بعد أن غدت حاضرة دولة الإسلام، فوجد أن لا مندوحة له من توسيع المسجد القائم آنذاك بضم الكنيسة المجاورة إليه وعوض على نصارى المدينة كنيستهم بأن أعطاهم أماكن أخرى يقيمون فيها عبادتهم. وهكذا وفي سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م، أمر الوليد بهدم ما يجب هدمه من الكنيسة والبدء بتشييد المسجد الجامع الكبير، وكان هو أول من حمل المعول للهدم من أجل البناء. واستمرت عملية البناء عشر سنوات وحشد لها الخليفة أمهر العمال المختصين من أطراف وأنحاء الإمبراطورية المختلفة. ويحدثنا المؤرخون ومنهم ابن جبير أن تكاليف البناء بلغت أحد عشر مليوناً ومائتي ألف دينار، أو (خراج المملكة سبع سنين) كما يذكر ياقوت في معجمه ومخطط المسجد هو المخطط الذي أنشئت عليه المساجد الإسلامية الأولى، وينص هذا التنظيم على أن يكون هناك فراغ مكشوف ضمن بناء مشيد على غرار بيت النبي ﷺ في المدينة الذي كان يقيم فيه المسلمون الصلاة، وعلى هذا فالمسجد يتألف من صحن فسيح تحده أروقة من جهاته الشمالية والغربية والشرقية، ومن الحرم الذي هو قاعة واسعة محمولة على عمد وقائمة في طرف الصحن الجنوبي، وأروقة الصحن الغربية والشمالية مغطاة بسقوف تستند على الجدران الخارجية من جهة، وعلى ركائز وأعمدة متعاقبة من جهة ثانية.

وفي الصحن قبة الخزنة وهي بناء صغير مثمن الشكل أقيم ليوضع فيه مال الدولة، ويستند على أعمدة ثمانية لها تيجان كورنثية، فوقها افريز يشابه الأفاريز الرومانية، وفوق البناء قبة صغيرة من الرصاص وقد زين هذا المسجد بعد بنائه زمن الوليد بفسيفساء جميلة دقيقة الصنع صنعت من مكعبات زجاجية صغيرة ملونة ومذهبة ومن قطع من الصدف نضدت على أشكال تمثل مناظر طبيعية مختلفة، يشاهد فيها أيضا عدد من العمارات في وسط حدائق غناء وهي تمثل صوراً من دمشق وقراها وغيرها من المناطق والبلاد الأخرى التي منها مكة المكرمة كما كانت عليه في العصر الأموي.

ولم يكن المسجد وحده هو كل ما بناه خلفاء هذا البيت في دمشق، فهناك العديد من القصور والبيوتات والمشافي والملاجئ، وكلها اندثر وتخرب ولم يبق لنا منه إلاّ إشارات قليلة ترد في كتابات المؤرخين.

الكتاب و الزوجات

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

- مقدمة:

نصح الحكيم (خيتي بن دواوف) ابنه (بيتي) عندما أدخله المدرسة قائلا:

"ضع قلبك وراء الكتب، فما من شيء يعلو على الكتب... ليتني أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك، وليتني أستطيع أن أريك جمالها، إنها أعظم من أي شيء آخر".

أولى المتقدمون الكتب اهتماماً كبيراً، وتفوق حبهم لها على كثير من زينة الحياة الدنيا، عن المال والولد وعن الحسب والنسب، وغير ذلك من ملاذ الدنيا.

ولكثرة ما كان العرب يقدرون الكتاب ويجلونه، ترى المثقف والأديب منهم إذا تحدث عن الكتاب يخدع مستمعيه وكأنه يتحدث عن صديق نما وُدُّه، وزاد إخلاصه، أو حبيب طال بعده وكثر الشوق إليه، أو رائد يقوده إلى الطريق المستقيم، ويأخذ بيده إلى الغاية الرشيدة.

في لقاء مع الدكتور الأديب عبد اللطيف يونس قال: "حين كان أجدادنا ينامون والكتاب في أيديهم وعلى صدورهم تفوقنا على الآخرين، وحين أهملنا الكتاب وتمسك الآخرون به تفوقوا علينا".

وقد حوت كتب التراث الكثير من الروايات التي تجسد مكانة الكتاب في نفوس الكثيرين. هذا الكتاب الذي له مع زوجات محبيه روايات وأخبار وقصص ونوادر وحكايات، فالمرأة بطبعها تحب أن تستأثر بزوجها، وليس أشق على نفس زوجة إلا أن تجد من تنازعها حب زوجها، ولذا سميت الزوجة الثانية (بالنسبة للأولى) ضرة، لكثرة تضرر الأولى وضجرها، وهناك روايات تؤكد أن الكتب تصنف في عرف الكثير من النساء على أنها ضرائر، أشد على نفوسهن من الزوجات الأخريات، لشغف الأزواج بها، وإيثارهم الركون إليها والألفة معها.

فالكتب عند النساء هي الضرائر المُضارَّة، فأول ما تمسّهنّ الضائقة يتجه تفكيرهن إلى بيعها وإخراجها من البيت.

والكتب عند العلماء هي الإخوان والأعوان، فإذا مسّتهم الضائقة صبروا على الجوع والعُري والفقر، ولم يصبروا على فراق الكتب وإخراجها.

كثير من الكتاب يعانون من مضايقة زوجاتهم، حيث يقضي الكاتب معظم وقته بين الكتب، وهذا أمر قديم جديد.

وبالمقابل نرى زوجات كثيرات يعانين من فجوة بينهن وبين أزواجهن. فالباحث والشاعر والأديب يلزمه خلوة وقد تطول لإنجاز عمل ما، هنا تشعر الزوجة أن الكتاب والكتابة قد أخذت زوجها منها، وهنا تبدأ المشكلات بين الطرفين، خاصة إذا كانت زوجة الكاتب غير مدركة لما يقوم به زوجها.

وإن كان بعضاً من اللوم يقع على الزوج الكاتب، فلبيته عليه حق ولزوجته عليه حق ولأولاده عليه حق، ومع ذلك فإن لبعض الكتاب زوجات مثقفات لكنهن يغرن من الكتاب، فيعدونه ضرة قد شاركتها في زوجها.

سأذكر بعضاً من الأمثلة لأناس تركوا عشق الخدود والقدود والعيون السود، وسعوا إلى عشق المكارم والقيم ومنبر المجد ومنارة المعرفة، قد ضربوا لنا أعذب قصة في العشق، وأجمل رواية في الحب، وأحسن أنشودة في الغرام، إنه عشق كتاب نافع من مغرم محب ذكي، وجد في الكتاب بغيته، وفي الحرف مطلوبه، فنسي كل معشوق آخر، هؤلاء الذين كتبوا بهياج أدبي وهدير عاطفي، كتبوا بدمهم وعرقهم وعواطفهم وأعصابهم، فخلوتهم كتبهم، سأذكر بعضاً من أخبارهم لتشحذ الهمة في زمن كثرت فيها أدوات اللهو، وبردت فيه الهمة عن القراءة، وبعدت فيه النفوس عن الكتاب.

الكتاب والكتب من حياة العالم تَحُلُّ منه محلَّ الروح من الجسد والعافية من البدن، ونرى من أخبارهم في فقد الكتب أو تلفها أو احتراقها العجب العجاب، وقد أكثروا القول في انتكابهم بها، فهذا القاضي الجرجاني أبو الحسن علي بن عبد العزيز، يذكر موقع الكتاب من نفسه ومن لذاذة حياته، فيقول كما جاء في ترجمته في كتاب وفيات الأعيان:

ما تطعمتُ لذَّةَ العيش حتى
صِرْتُ للبيتِ والكتاب جليسا
ليس شيءٌ عندي أعزَّ من العلم
فما أبتغي سِواه أنيسا
إنما الذُّلُّ في مخالطة النا
سِ فدَعهم وعِش عزيزاً رئيسا

ويقول إبراهيم بن السندي: "سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس"

وقد عُذِل سلمان بن عبد الحميد الحموي في كثرة شرائه للكتب فقال:

وقائلةٍ أتلفت في الكتب ما حوت
يمينك من مال فقلت دعيني
لعلي أرى فيها كتاباً يدلني
لأخذ كتابي في غد بيميني

ويقول علامة العربية ورئيس أهل اللسان فيها أبو القاسم الزمخشري، يحكي تلذذ العلماء بإيقاظ ليلهم وطول سهرهم:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي
من وَصل غانيةٍ وطيب عناقِ

وتمـــايلي طربـــا لحـــل عويصـــة

أشـــهى وأحلـــى مـــن مُدامَـــة ســـاقِ

وصـــرير أقلامـــي علـــى أوراقهـــا

أحلـــى مـــن الـــدَّوكاه والعُشـــاق

وألـــذُّ مـــن نقـــر الفتـــاة لـــدفها

نقـــري لألقـــي الرمـــل عـــن أوراقـــي

أ أبيـــت ســـهران الـــدجى وتبيتُـــه

نومـــاً وتبتغـــي بعـــد ذاك لَحـــاقي؟

- الكتاب ضرة:

قيل لزوجة الزبير بن بكار وكان محباً للكتب هنيئاً لك إذ ليست لـك ضـرة، فقالـت: "والله لهذه الكتب أضر عليَّ من عدة ضرائر".

وقد ورد في سيرة الزهري (توفي سنة ١٢٤هـ) الفقيه المحدث من أعلام التابعين، أنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله مشتغلا بها عن كل أحد، وعن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له زوجته يوماً معبرة عن غيظها: "والله لهذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر".

ويروى عن أحد عشاق الكتب أنه تزوج، فصممت زوجته أن تقلعه عن مطالعة الكتب وعن شرائها، فدخل في أحد الأيام متأبطاً حزمة من الكتب الجديدة، فثار ثأرها وصاحت به: "لا كتب بعد اليوم" فأجابها على الفور: "إذن لا زوجة بعد الآن".

- معاناة زوجة كاتب:

وصف الشعراء مرارة ما تعانيه زوجة محب للكتاب، فصوروا ذلك بأحلى الصور، وبينوا كيف أن هذه الضرائر حرمتهن من أزواجهن، واستأثرت بحبهم وألفتهم، فهذا عمر يحيى يصور لنا في ديوانه محاورة شيقة بين امرأتين صديقتين، تتساءل إحداهما عما أصاب صديقتها من وهن ونكد عيش، فتقول لها متسائلة:

رأتهـــا توقـــد مـــن غيظهـــا

وتشـــكو الزمـــان وتشـــكو الحصـــاب

تســـيل الـــدموع ولا تنتشـــي

تهـــد وتبـــدو بظفـــر ونـــاب

فقالت لهـــا: مـــا الـــذي قـــد دهـــاك

فأصـــبحت منـــه وفيـــه ارتيـــاب

أخـــاف عليـــك وقـــوع الجنـــون

وأحـــذر مـــن أن تشـــقي الثيـــاب

أجابـــت: دعينـــي أن المصـــاب

أتـــاني مـــن حملـــه للكتـــاب

فعنـــد الصـــباح ولـــوع بـــه

وعنـــد المســـاء إليـــه المثـــاب

إذا مـــا تغنـــى بلـــيلاه قـــيس

فزوجـــي بحـــب الكتـــاب أهـــاب

- الانتقام من الكتاب:

الأمير ابن فاتك عاشق الكتب وزوجته:

روى ابن أبي أصيبعة في طبقاته للأطباء، أن المبشر بن فاتك كان أميراً من أمراء مصر وسمي بمحمود الدولة أبو الوفاء الآمري، وكان من أعيان مصر وأفاضل علمائها وأطبائها، كان محباً لتحصيل العلوم، وكانت له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة، وكانت له زوجة كبيرة

القدر أهلها من أرباب الدولة، فلما توفي نهضت هي وجواريها إلى خزائن كتب زوجها، وفي قلبها غصة من الكتب، لأنه كان مشغولاً بها عنها، فجعلت تندبه وهي ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي ومن معها، فغرق وتلف معظمها، وأنقذ بعضها.

- انتقام من نوع خاص:

في سيرة عمر بن سهلان الساوي (توفي ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) العالم الموسوعي الفلكي أنه بعدما توفي اجتمع أهل بيته وأحرقوا مكتبته ومؤلفاته وادعوا أنهم فعلوا ذلك حزناً عليه، ولو أن كل عالم توفي وفعل أهله ذلك، لما بقي كتاب بين أيدينا ولما وصلنا من تراث أجدادنا شيء، ولكنها غيرة النساء من الكتب.

- نهاية مخطوطات طبية:

جاء في عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، أن الطبيب الموسوعي ابن المطران (توفي ٥٨٧هـ/١١٩١م) كان مهتماً بالكتب، عنده عناية بالغة باستنساخ الكتب الطبية وتحريرها، مستخدماً في ذلك نساخاً يكتبون له على الدوام، ولهم مرتبات سنوية، حتى قيل إنه عند وفاته كان خزانته من الكتب الطبية وغيرها عشرة آلاف مجلد عدا المنسوخ الذي كتبه له نساخه، وكان خطه جميلاً ومن عادته أنه كان يهدي تلامذته الكتب، لكنها بيعت بعد وفاته حيث لم يخلف ولدا، وورد أن أخواته أخذن مسودات كتبه وصرن يضعنها في أسفل الصناديق.

- استغراب:

اضطر أبو الحسن علي بن محمد بن ثابت الخولاني المعروف بالحداد المَهْدَويّ لبيع كتبه بسبب الفقر، فسألته زوجته وهي تعرف حبه لكتبه وشدة تعلقه بها: "كيف بعت الكتب وهي أعز شيء لديك؟" مع أنها فرحت ببيعها. فقال لها:

قالت وأبدَتْ صفحةً
كالشمس من تحت القناع
بعت الدفاتر وهي آخـ
ـرُ ما يُباع من المتاع
فأجبتها ويدي على
كبدي وهمّتْ بانصداع
لا تعجبي مما رأيت
فنحن في زمن الضياع

- شاعر يصور حال زوجته:

قال محمود عماد في قصيدته (الزوجة والكتاب):

تغار من الكتاب إذا رأتني
أطالعه وأترك وجنتيها
تضن بفكرتي في ما عداها
وتنكر نظرتي إلاّ إليها
وتنفر من مقال ليس فيها
ولو شمل الحياة وملحقيها
وتحسب هيكلي ومحيط نفسي
بقية إرثها من والديها
وقد ظفر الكتاب ببعض هذا
لذلك كان إحدى ضرتيها

فنظم (أبي العلاء) أحب منه
حديث عن نظام ذؤابتيها

ونثر ابن المقفع لا يوازي
نثار الورد من إحدى يديها

وعلم الكون إن لم يرو عنها
فذا لا ينطلي أبداً عليها

ولكن من كتابي لي اعتذار
فهل هو رائج في مسمعيها

أطالعه فأفهم ما لديه
ولم افهم بجهدي ما لديها

- ابن سلك الغالي وبيعه للكتاب:

مر معنا أن الكتب عند النساء هي الضرائر المُضارّة، فأول ما تمسّهنّ الضائقة يتجه تفكيرهن إلى بيعها وإخراجها من البيت، وقد أعلمت أن أحد العلماء الباحثين في دمشق ممن عنده مكتبة كبيرة، كانت زوجته بعد خروجه ترمي من كتبه في أكياس القمامة لتتخلص من المكتبة التي ملأت البيت، مع أن العلماء مهما مستهم الضائقة ولدعهم الفقر بسياطه صبروا على الجوع والعُري والفقر، ولم يصبروا على فراق الكتب وإخراجها من بيوتهم.

ومع ذلك قد يضطر أحدهم من شدة الفقر أن يبيع كتابا نادرا فيورثه ذلك حسرة ما بعدها حسرة مثلما حصل مع ابن سلك الغالي الأديب... جاء في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان للقاضي ابن خلكان في ترجمة الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن طاهر، أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الغالي الأديب كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد في غايه الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها، فاشتراها الشريف المرتضى بستين ديناراً، وتصفحها فوجد بها أبياتاً بخط أبي الحسن الغالي وهي:

أنِستُ بها عشرين حولاً وبعتُها
لقد طال وَجْدي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها
ولو خلَّدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصبية
صغار عليهم تستهلُّ شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي
مقالة مكويّ الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجاتُ يا أم مالكِ
كرائم من رَبٍّ بهنَّ ضنين

فأرجع النسخة إليه وترك له الدنانير...

- حوار بين إبراهيم الحربي وزوجته وابنته:

جاء في تاريخ بغداد أن إبراهيم الحربي (١٩٨ - ٢٨٥هـ) أفنى عمره يطلب العلم حتى صار فقيهاً أديباً لغوياً، وجمع مكتبة ضخمة كبيرة، ومع ذلك كان فقيراً، قالت له زوجته يوماً: "هب أني وإياك نصبر، ولكن ماذا نصنع بهاتين الصبيتين؟ فهات شيئا من كتبك حتى نبيعه أو نرهنه" فلم يفعل وانتظر إلى أن فرج الله عنه، وكيف يبيع الكتب التي جمعها ونسخها بلحمه ودمه؟! فهم كما قال الزمخشري في كتابه نوابغ الكلم (مجد التاجر في كيسه، ومجد العالم في كراريسه) ويتابع الخطيب البغدادي فيقول: "عندما اعتل الحربي

علة الموت، قالت لـه ابنته: "يا ابتي ما عندنا شيء وقد أرسل لـك المعتضد ألـف دينـار فرفضتها". عند ذلك تبسم وقال لها: "يا بنيـة إنما خفت الفقر، فقالت: نعم، فقال لها: انظري إلى الكتبَ.. إنها اثنا عشر ألف جزء في اللغة وغريب اللغة، كتبتها بخطي، إذا مت فـوجهي كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم، فمن كان عنـده اثنا عشر ألف درهم فليس بفقير".

- زوجات من نوع خاص:

الزوجة صـاحبة الخلـق والمعرفـة، المتنورة بالعلم، تجعل بيتها واحـة اسـتقرار وهناء، يتفيأ زوجها في ظلالها فيجنـي حبـا غامراً وسعادة تنسيه آلام الحيـاة وشـقاءها وشدائدها.. وتمسح عنه التعب اليومي بالكلمة الرطبة، والبسمة الحانيـة، والعبـارة العذبـة الرقيقة، وتوفر لـه الجو الهادئ إذا كان باحثاً أو شاعراً أو قاصاً.

- زوجة العكبري:

ذكر ابن رجب في ذيل الطبقـات فـي ترجمة العلامة العكبري أن ابن النجـار قـال: قرأت على العكبـري كثيـراً مـن مصـنفاته وصحبته طويلاً، وكان محباً للاشغال والانشغال بالعلم ليلاً ونهاراً، ما يمضى عليه سـاعة إلا وواحد يقرأ عليه، أو يطالع لـه، حتى ذكر أنه بالليل تقرأ لـه زوجته فَي كتب الأدب وغيرها.

وبعد أن توفيت زوجة أبـي وداعـة العالم الذي أخذ العلم من سعيد المسيب زوجـه أستاذه سعيد ابنته وفي صباح ليلة العرس قالت لـه إلى أين، قال أطلب العلم من والدك قالـت لـه: اجلس فإن علم أبي عندي.

وقد ذكر السخاوي في الضوء اللامع، أن إبراهيم القلقشندي القاهري بـاع كتبـه أو معظمها لضيق ألم به، فقاسى من ذلـك مـالا يعبر عنه، حتى تألمنا لألمه.

- الخاتمة:

إنهم أنـاس عرفـوا قيمـة الكتـاب وعشـقوه، ومـا بـدلوه بكنـوز الـدنيا، ولا بالتيجان، كان أبو طاهر ابن أبي الصقر يقول: "هذه كتبي أحب إليَّ من وزنها ذهبا"

وخالد بن يزيد الأموي عاشق العلـم، ترك الخلافة بعدما استلمها بثلاثة أشهر لأنهـا شغلته عن كتبه، ويعبر ياقوت الحمـوي عـن مدى حبه للكتب ومتعته وبهجته وهـو بـين مكتبات مرو الشاهجهان عندما أقام بها فيقول: "كنت أرتع بها، وأقبس من فوائـدها، وأنساني حبها الأهل والولد.."

ويقول (فنسنت سارين) عندما نجمـع الكتب، فإننا نجمع السعادة، فالمكتبـة حديقـة البيت وروح الأسرة، وكعبة المعرفـة، خيمـة فيها مكتبة أجمل وأبهى من قصر بلا كتاب.

ويقول (شيشرون) الخطيب الرومـاني بيت من غير كتب كجسم من غير روح.

أما (هوراس مان) فيقول: "بيـت بـلا كتب مثل حجرة بلا نوافذ".

وأختم بقول (فرانسوادي فينيلون): "لو وضعت كل تيجان أوربا تحت تصرفي على أن أتخلى عن كتبي ودراساتي لركلـت التيجـان، ووقفت بجوار كتبي".

فهل سيتخلى باحث وكاتب عن كتبـه لأن زوجته تنظر إليها كضرة..؟!

وتحية لكل زوجة توفر لزوجها الجـو الهادئ للبحث والكتابة، وتحية لكـل أم تقـول لولدها: اقرأ وتعلم، وأقول للزوجة النكدة التي لا تعرف قيمة الكتاب أحسن الله عزاءك.




بصمات..

شعر الدكتورة سعاد الصباح

ماذا أفعلُ بتراثِكَ العاطِفيِّ
المزروعِ في دمي..
كشجَرةِ ياسمينْ؟
ماذا أَفعلُ بصوتِكَ الذي
ينقُر كالدِّيك وجهَ شَراشِفي؟
ماذا أفعلُ ببصماتِ ذوقِك
على أثاثِ غُرفتي..؟
بتماثيل السيراميك المُبَعْثَرةِ في الزوايا..
باللَّوحاتِ التي انتقيْناها معاً..
والكُتُبِ التي قرأناها معاً..
والتِّذكارات السياحيَّةِ
التي لملمناها مِنْ مُدُنِ العالمْ..
وبالأصدافِ التي جمعناها
من شواطئ البحرِ الكاريبي..؟
قُلْ لي يا سيِّدي:
ماذا أفعلُ بهذه التركةِ الثّقيلةِ مِنَ الذكرياتِ
التي تركْتَها على كَتِفيَّ..
وعلى شفَتيَّ؟
لقد حاولتُ أكثرَ من مرَّةْ
أن أتخلَّصَ مِنْك.. ومِنْها..
ولكنَّني خجلتُ مِنْ بيعِ تاريخي..
وبيعِ مشاعِري..
وبيعِ ضفائِري..







في المزادِ العلنيِّ!!
إلى أيِّ مدينةٍ مِنْ مُدُنِ العالَمْ
سأذهبْ؟
ومعكَ خرائطُ كُلِّ الأمكنةْ
وفي أيِّ مقهىً سأجْلِسْ؟
وأنتَ احتكرْتَ أشجارَ البُنّ..
ورائحةَ القهوَةِ..
وبأيَّةِ لغةٍ سوفَ أتكلَّمْ؟
وبيدَيْك مفاتيحُ لُغَتي..

*　*　*

حاولتُ ترحيلَكَ
إلى الوجهِ الثّاني مِنَ القَمَرْ..
فلمّا طلعَ القمَرْ
عُدْتَ مع أشِعَّتِهْ..
ووجدتُ وجهكَ مرسوماً على زجاج نافذتي
حاولتُ أن أُرسلكَ إلى أُمِّك
التي علمّتْك الدلَعَ..
والفوْضى..
وهوايةَ جمعِ الطوابعْ..
وجَمعِ النساءْ..
ولكنَّها أعادَتْك لي بالبريد المضمُونْ..
مع أطيبِ التمنِّياتْ..

*　*　*

حاولتُ إدخالَكَ إلى مدرسةٍ داخليّةْ..
تتعلمُ فيها شيئاً مِنَ الحبّ..
وشيئاً مِنَ الشعْرِ..
وشيئاً مِنَ الفروسيَّةْ







ولكنَّ ناظِرَة المدرسةْ
أرجعتْكَ في نهاية اليوم الأوَّلْ
بَعْدَما تعاركتَ مع جميع الأساتذَةْ..
وأضرَمْتَ النّار في ثياب التلميذاتْ!!..

* * *

حاولتُ أن أقتلِعَكَ من تُرابِ ذاكِرَاتي
فوجَدْتُ أنَّكَ مُتشَبِّثٌ بأنْسِجَتي
كنباتِ حاولْتُ أنْ أقتَلِعَ رائِحَتَكْ
مِنْ بحريّ..
مساماتِ جِلْدي..
فتساقَطَ جِلْدي..
ولم تَخرُجْ أنتْ!!

* * *

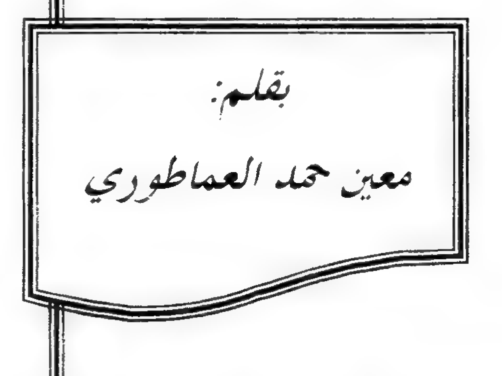
حاولتُ نفيَكَ إلى آخر الدُّنيا..
وهيَّأتُ حقائِبَك..
واشتريْتُ بطاقةَ السَّفَرْ
وحجزتُ مكاناً لكَ علىٰ أوَّلِ سفينةْ..
وعندما تحرّكت السفينةْ
تحرّكت الدَّمعةُ في عيني..
واكتشفتُ، وأنا على رصيف المرفأ
أنَّ الذي ذهبَ إلى المنفى..
هو أنا.. لا أنتْ..

* * *

كلُّ شيءٍ قابل للمَحوْ، يا سيِّدي
إلا بصماتِكَ المطبوعةَ على أُنوثتي..




العولمة وأثرها على الأغنية العربية



أسعدَ اللهُ مساءَكمْ وكلُ عامٍ وأنتُمْ بخيرٍ بعيد الفطر السعيد وأعياد التشرينين الوطنية:

أشكُركمُ وأشكرُ حضوركمُ و أَشكرُ إدارةَ المركزِ الثقافيِ العربيِ في الحمرا. والصديقَ الأستاذ عليٍ الحبيب لدعوته الكريمةً، التي جعلتني ألتقيَ بكم، لأقَّدَم بطاقَةَ حب وتقدير معطرةٍ بأريجِ ياسمينْ دمشقْ الفيحاءْ إلى أهلنا في هذه البلدةِ الجميلة بسهولها الكريمةَ بأهلها.

تعد الأغنية العربية بأنواعها المختلفة الشعبية والطربية والوطنية.. الخ مدلولاً وجدانياً اجتماعياً تنم عن ثقافة شعوب وأمم وهي نتاج حضارات وتاريخ لأنها بحق مرآة المجتمع وانعكاس منظومته ونظامه بقيمه الإنسانية وأعرافه التاريخية، وقد وصلت الأغنية اليوم إلى درجة كبيرة من الانحطاط الفني، وأصبحنا نترحم على من كانوا من الجيل الماضي الذين اتهموا باستخدامهم الإيقاعات السريعة والمقامات الغربية وغير ذلك مع أنهم قدّموا لنا أغان فيها النكهة الشرقية العربية الأصيلة وجعلوا من الآلات الموسيقية الغربية في خدمة الموسيقا العربية وفرقها وهم الموسيقار الراحل /فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي وغيرهم/.

لقد شهد عصر النهضة العربية صراعات فكرية وأيدلوجية على جميع الأصعدة، أثرت على مجتمعاتنا العربية وثقافاتها ضمن الإطارات المحدودة والشاملة وبصورة مباشرة أو غير مباشرة، وقبل الخوض في غمار حيثيات موضوعنا، نود أن نستهل حديثنا بمقدمة عن الغناء الذي يمكن تعريفه على انه احد الإبداعات الفنية الأكثر

التصاقا ومعايشة وملامسة للمشاعر والأحاسيس الإنسانية، وبالتالي تأثيراً بها وتحكما في مساراتها، فالغناء هو الأقدر على تلوينها بالفرح والطرب إلى حدود النشوة والتجلي، والحزن والكآبة حتى البكاء وذرف الدموع، واستنهاض الهمم والعزائم، وهو قبل كل اعتبار واحد من المخرجات الثقافية لأية جماعة إنسانية يعكس روحها وحسها ومزاجها ومدى شفافيتها وتجاوبها مع البيئة التي تعيش في كنفها، وبالتالي درجة تأثيرها وتأثرها بها.

والأغنية أيا كان لونها - طربية، شعبية، تراثية، وطنية، دينية، عاطفية، ألخ - هي وليدة عناصر رئيسة تتمثل في كلماتها ولحنها وتوزيعها الموسيقي وأدائها وتلقيها. وهي عناصر تتداخل مع بعضها لتحدد في النهاية مدى صدقها وثباتها وإمكانية نجاحها وقدرتها على التواصل مع الأجيال، ويمكننا أن نضيف إليها عنصراً آخر هو روحها الوليدة من رحم ثقافة التي تنتمي إليها وتصبح جزءا لا يتجزأ منها.

والأغنية بشكلها تقيدت بقوالب فنية متعارف عليها في فن الغناء العربي بدءً من الغناء بكلمة يا ليل ومروراً بالمواليا والقصيدة والموشح والدور والطقطوقة والأغنية الشعبية والتراثية والدارجة وانتهاء ببعض القوالب التي وردتنا من الغرب نتيجة الاحتكاك الثقافي من مثل: الديالوغ، الأوبريت، المونولوغ، الرومانسي والآخر الانتقادي وما إلى ذلك...

وهي كفن تناولت مختلف الأغراض العاطفية والوطنية والقومية والدينية والسياسية وما إليها، وإن غلب الغزل بأنواعه وسيطر على مضامين سائر النظم في الغناء، ومن قبيل التذكير بمقولة موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب الذي قال: /كلما كانت الأغنية منهارة في معناها وموسيقاها، أصبحت نوعاً من التخريب الاجتماعي/.

فهل ينطبق كلام موسيقار الأجيال على واقعنا اليوم؟...

أم أننا اليوم نعيش في بعد كامل عن هوية موسيقانا العربية؟...

أعتقد أننا فقدنا هوية الأغنية العربية عامة، وأصبح يقع على عاتق الملحنين والمطربين والشعراء والجهات الرسمية المعنية النهوض بمستوى الأغنية لترسي على شاطئ الأمان والاستقرار الذي نطمح إليه، محافظين على شرقيتنا الأصيلة وتراثنا العربي الأصيل، وذلك من خلال العناصر الأساسية والتي تتألف من /الكلمة واللحن والصوت والأداء/ بعيدين عن التقليد والتحريف والمسايرة والتزييف، فلابد للنهوض بالأغنية إلى المستوى المطلوب أن ترتقي عبر عناصرها الثلاث.

أولاً - النص:

إن كتابة الأغنية شعرا كان أم زجلاً من أجل التلحين والغناء والتسلية على نحو ما كان سائداً حتى نهاية العقد الثاني من القرن الماضي إنما هو عمل أدبي درامي له مقدمة وبداية ووسط ونهاية وشأنه في ذلك شأن أي عمل أدبي آخر قصة كانت أم رواية أم مسرحية، ودور شاعر الأغنية ينتهي بعد نظمه للأغنية شعراً كانت أم زجلاً أم كلمات ومن ثم يأتي دور الملحن: الذي يجب أن يكون متعايش مع كلمات الأغنية ومقتنعاً بها ومتأثراً بمعانيها ومضامينها، ليعكس كل ذلك في ألحانه التي أوحتها له. والأغنية لا تكتمل صورتها النهائية

إلا بعد أدائها من المؤدي ليحكم المتلقي لها أو عليها.

لقد ساهم اختيار النص الجيد من قبل شعراء الأغنية في تطوير حركة الثقافة الموسيقية من الناحيتين التجديد والتطوير فيها، أما اليوم فيجب إعادة النظر في المنهجية والطريقة الفنية التي تكتب فيها كلمات الأغنية خاصة وأن هناك أسماء شعراء أصبحوا يمارسون دكتاتورية الكلمة الغنائية وقد ساهموا في الماضي بشكل جلي في الستينات والسبعينات والثمانينات القرن الفائت بوضع ملامح ومعالم للأغنية السورية واليوم أصبحوا يقدموا كلمات أغان هابطة جداً تحت ذريعة هكذا تحتاج الموضة أو العولمة إن صح التعبير، فالشعر الغنائي فن كأي فن من فنون الحياة يساهم في انعكاس صورة واقعية عن مفهوم وثقافة البيئة التي تقدم تلك الفنون.

ولابد من النظر في إشكالية النص بشكل تتلاءم الكلمة المغناة مع معطيات الحياة وهمومها الاجتماعية لا أن نقدم الكلمة الهابطة ونساهم في تشويه الثقافة العربية والذوق العربي وحتى الاستماع، والأغنية كالبناء إن لم تملك أساس متين تبقى هشة وتتأثر بأي موجة هوائية جارفة يمكن لها أن تأخذها إلى ما لا يحمد عقباه، فالكلمة هي جزء أساسي في بناء الأغنية العربية بأنواعها، من هنا يتطلب إعادة النظر في ماهية الكلمة الشعرية ذات الطابع الغنائي، والسعي لجعلها السند الأساسي التي تحاكي عواطف المتلقي وأحاسيسه بواقعية صادقة، ومنسجمة مع عادات وتقاليد وتراث الشرق العربي وتاريخه، بعيداً عما تسعى إليه العولمة بتزيف وتحريف وانحراف في السمع والذوق.

ثانياً- اللحن:

وهنا تكمن الطامة الكبرى بما يحدث اليوم من تشوية واقتباس وتزوير بالألحان المفضوحة والساذجة من قبل البعض وللأسف أصحاب المواهب الفنية الحقيقية قابعين في بيوتهم لا يجدون من يقدم لهم بريق الأمل لإظهار ألحانهم لأن شركات الإنتاج سيطرت ليس فقط على الألحان بل على الأذواق أيضاً، وبتقديري لا يمكن النهوض بالموسيقى والأغنية إلا من خلال تلك المواهب الفنية الدفينة التي لا ترى النور أبداً، وتجديد دم الحاضر بدم الماضي لوضع استراتيجية ومنهجية جديدة عامة للنهوض بالأغنية، وإعادة النظر فنياً وبشكل علمي دقيق بما يقدم ابتداءً من اختيار المقام للأغنية ونهاية بالجملة والقفلة والحبكة في الجملة الموسيقية وصولاً للإيقاعات التي باتت أخرى في ضياع غير مقبول من تدخل الآلات الإيقاعية التي تحمل إيقاع إلكتروني مع أنغام كـ / الأرغ مثلاً/.

لأن الألحان المقدمة واستخدم الإيقاعات الغربية السريعة والإلكترونية عن طريق آلة الأورغ أصبح يقلق المبدعين في خلق جمل إبداعية تنم عن تطوير ثقافة الملحن موسيقياً إلى أن آلة الأورغ على رغم تشريقها وتضمينها الأرباع الموسيقية، تخلو تماماً من الحس الشاعري الإبداعي ولا تملك تاريخ وقدرة الآلة الشرقية على استقطاب ذوق المستمع للفن الأصيل، وللأسف الألحان أصبحت تذكرنا بموسيقا الروك والجاز والصخب المؤلمة والمشوهة للأذن وللأذواق العربية وهي بمنأى عنها، إضافة إلى المقامات الغربية التي كثر استخدامها كنهوند والعجم بدلا

من الراست والبيات والصبا وبتنا ملك العولمة الزائفة ونخدمها بأيدينا ودون عناء منها.

ومما يشجع على نشرها كالنار في الهشيم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة لتخدم أغاني العولمة الهابطة وذلك بفرضها فرضاً على المستمعين من خلال الإذاعة والقنوات الفضائية والبرامج والإعلانات في كافة القنوات بل أوجدوا قنوات خاصة باتت لا تحصى من /روتانات وغيرها/...

ويتبع انحدار الألحان إلى احتكار النجومية على من يمتلك المال لا الموهبة، لأن بعض الشعراء والملحنين والمطربين يتلاهثون وراء الربح المادي فقط، لا وراء الإبداع وتقديم ما هو إبداعي ليجسد الموهبة الفنية الحقيقية، والسؤال هل نستطيع أن نواجه التحديات بهذه الوسائل الفقيرة في الفن الهابط أم ماذا؟!!!..

وأستذكر موقف الموسيقار السوري الراحل عزيز غنام عندما قدم لحناً للمطربة دلال الشمالي وكان هو أحد أعضاء لجنة التحكيم للألحان في الإذاعة السورية واستمع إلى لحنه فكتب عليه /عبارة لا يصلح/ ورفضه، فهل يحدث هذا في مهرجانات الأغنية العربية حالياً مثلاً.

- الأداء:

إن الأصوات التي تقدم بتقديري تحتاج إلى ثقافة موسيقية كبيرة وصقل أكثر في ممارسة الغناء، لأن الأصوات اليوم لا تمت إلى الغناء العربي الأصيل بصلة لأنها غير قادرة على الغناء العربي وأنواعه كالدور والموشح والقصيدة والأغنية الشعبية، وانحصرت أصواتهم في مساحة الأغنية الشعبية الخفيفة الخالية من التطريب والمد الصوتي، إضافة إلى استخدام محسنات الصوت بالآلات التقنية وبالتالي أصبح التزييف والتحريف على المستمع واضح وذلك باستخدام التمتمة في مهرجانات الأغنية التي يجب أن تحمي الأغنية لا أن تقدم لنا تشويهها حقيقياً وبالتالي أصبح الأداء غير مقبول في عالم الفني والطرب العربي الأصيل، والأسوأ من ذلك أن أعضاء لجنة التحكيم هم نفسهم من يقدمون الألحان ويتقاسمون الغنائم بالتساوي وهذا بات واضحاً دون المغالاة بذلك، وأصبح عدد المطربين أكثر من المستمعين لأن أفضلهم لا يستطيع أن يغني على المسرح وأمام الجمهور وبصحبة الفرقة الموسيقية ألا بعد تحريف وتشويه واستخدام التقنية المعولمة المزيفة، إضافة إلى تفجير قنابل الألقاب التي تنهال على كل صاحب صوت نشاز، أليس هذا مظهر للتساؤل لماذا... وإلى أين سنستمر في ذلك..؟!.

- الفرقة الموسيقية:

منذ بداية العقد الثاني من القرن العشرين أخذ الموسيقيون من موسيقات الشعوب الأخرى ما يلائم موسيقانا دون الخروج على مقومات وأصالة الشخصية العربية، بدأ من التدوين الموسيقي والآلات الموسيقية والإيقاعية، والإيقاعات العلوم الموسيقية وانتهاء بالأداء التكنولوجي، وكما هو معروف دخلت عائلة الكمان على التخت الشرقي عدا آلة الفيولا وأصبحت ركناً هاماً من أركانه لأنها تستطيع أداء ما أتفق عليه اصطلاحاً بالربع التقريبي، وتبع أسرة الكمان دخول الأكورديون والبيانو ثم الكيتار بأنواعه، والماندولين والبانجو وعدد كبير من آلات

النفخ الخشبية والنحاسية وآلات الإيقاع الغربية المختلفة وظل استعمال هذه الآلات قاصر على المقامات التي تتماشى.

ومقامات الماجور والمينور الغربية بسبب الدساتين التي تحول دون الحصول على ربع المقام الشرقي التقريبي، واستخدامها ظل قاصراً حسب الحاجة إليها، سنين الثلاثينات تسللت الإيقاعات الغربية الراقصة إلى الأغنية العربية من مثل التانغو الأرجنتيني والرومبا الكوبية والسامبا البرازيلية والفالز النمساوي والبوليرو الأسباني وغيرها من الإيقاعات التي وظفها العمالقة لخدمة الأغنية العربية دون الخروج عن عنصري الطرب والتطريب اللذين هما عماد الغناء العربي.

لقد استخدموا في الماضي الفرق الموسيقية العربية الآلات الموسيقية الشرقية وجعلوا تلك الآلات أساساً في فرقهم وقيادتها بدلاً من أن يقود الفرقة آلة الأورغ، يقوده قانون أو الكمان مثلاً، والأمر الأكثر أهمية عدم جعل الآلات الغربية مقدمة في الفرق العربية بل خلفية وذلك كي نستطيع تجاوز الربع التقريبي في الموسيقى العربية صحيح كما ذكرنا أنه تم تشريق معظم الآلات الغربية ولكنها لا يستعاض عن الآلات الأساسية في التخت الشرقي كالقانون والعود والكمان والناي في الفرق العربية بشكل حسي لأن تقليد الآلات من خلال تركيب أصواتها على بعض الآلات الأخرى كالأورغ مثلا فقدت عامل الإحساس والتذوق في الاستماع الموسيقي، هذا ويجب أن يجرى التدريب أكثر فأكثر مع المطربين لمجاراة الفرق الموسيقية كي يعطوا الثقة أكثر واكتساب الخبرة أكثر في الغناء بدل من التحريف والتمتمة الغنائية بعد تسجيلها في الاستوديوهات.

أما الأغنية السينمائية:

ارتقت الأغنية السينمائية في القرن الماضي لتصبح عاملاً هامةً في تقريب أجواء الود في الأفلام التي كانت تعرض في صالات السينما، حيث أخذت دوراً أساسياً في الصياغة الدرامية للأفلام خاصةً وأنها توافقت بمضمونها مع الدرامة والكلمة الغنائية إضافة للألحان الجميلة المعبرة بشكل يجعل المستمع ينسجم مع الحوار السينمائي والأغنية السينمائية التي أخذت صبغة تسميتها كذلك لأنها حققت عناصر مشوقة في السيناريو، مع العلم بأن الأغنية السينمائية لم تكن تحمل الطابع الحواري، (أي أنها لا تشبه الديالوج) أو الأوبرا في عملية الحوار غنائي، بل نجد الكلمة و الموسيقا في الأوبريت والكوميديا الموسيقية هي مشكلة، لأنها تكتسب وزناً خاصاً من خلال التجسيد والتفاعل مع المواقف فتكون تعبير عن حدث عاطفي أو استعراضي بشكل أغنية يؤديها مطرب لحبيبته، أو تكون الأغنية تجسيد لرمز معين، كأن يصدح مطرب بأغنيته ضمن غرفة مظلمة تعبر عن المعاناة والألم من ظلمة الوحدة وبُعد الحبيب، وغالباً ما تشكل الأغنية موسيقا ضمن الصورة.

وبطبيعة الحال تختلف مهمة الأغنية في تطوير الحدث وذلك حسب مجالها وشكلها فقد تكون في الفيلم أغنية شعبية من التراث ترسم بذلك ملامح المكان للموضوع وتعرف بجنسية المغني: فهي إذا تقدم لنا التعريف بالجو والجنسية مقللة من التأثير المرني للأغنية بحد ذاتها وكذا الحال بالنسبة للأغاني التاريخية، ولكل أغنية مقولتها المختلفة. وكل مجال من مجالات الأغنية المختلفة يحمل شحنات متباينة المضمون وتنقل للمشاهد

تصورات معينة عن زمان ومكان وتشكل في ذهنه معلومات عامة، فالمشاهد ليس عليه سوى الإقرار بالأغنية، بزمانها ومكانها، وبعد ذلك تبقى الأغنية بالنسبة له عبارة عن موسيقا عامة تنقله بعيداً إلى التراث، وتلعب الأغنية في هذا المجال دوراً هاماً في حال امتلاكها للعناصر الفنية الجيدة، فغالباً ما يتم التعبير عن المشاعر من خلال عرض الأغنية.

ولكي ننتقل من العموميات والتجريد إلى الملموس والمحسوس، فأننا لا نجد ضيرا في إعطاء أمثلة على سبيل التذكير لا الحصر .أن الطرح الحالي اليوم هو أن الأغنية السينمائية هي الأب الشرعي لأغنية / فيديو كليب/، أن كثيراً من أغاني "الفيديو كليب" العربية الإنتاج، تصور في عواصم أجنبية وليس لكلماتها ولا لألحانها علاقة حقيقية بهذه الأمكنة غير ما يمكن أن يشتم من توهم البعض أنها تكسبها "العالمية"، وتضفي عليها مسحة من "الرقي الحضاري"، ويمنحها تأشيرة دخول إلى أذواق "الشرائح الاجتماعية المتحضرة".

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، إذ نلاحظ أن معظم هذه الأغاني تعتمد على آلات موسيقية غربية كالقيثارة الأسبانية على سبيل المثال، كما أننا نشاهد الفريق المرافق "الكورس" وهو في الغالب يرتدي ملابس أوروبية تاريخية ذات علاقة ببلاطات أباطرة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أو إن هذا الفريق يرتدي ملابس حديثة وقبعات لرجال أعمال غربيين أو رعاة أبقار، أو انه يؤدي رقصات تارة أسبانية ومكسيكية، وتارة أخرى هندية، وثالثة أمام معابد بوذية في تايلاند، ورابعة في غابات إفريقيا السوداء، وخامسة يسوق الدراجات النارية بملابس جلدية ضيقة عارية الذراعين محلاة بأساور وعقود وسلاسل.

أن ما يهمنا هنا في الدرجة الأولى هو هذا الاستغلال الفاضح لجسد المرأة، بغية الترويج لهذه الأغاني التي تفتقر في الغالب إلى ابسط عناصر الفن الغنائي الحقيقي. إلا أنها في نفس الوقت ترتكز أساسا على الإثارة الجسدية، سواء من خلال التركيز على أجساد المغنيات، أو أجساد المرافقات وهن يؤدين رقصات شبه عارية، أو تلك الحركات الخلاعية، التي تخدش الحياء، وتستثير الغرائز الحيوانية، مستبيحة المحرمات الأخلاقية والتربوية، وضاربة عرض الحائط بالقيم الاجتماعية والسلوكية التي تتحلى بها غالبية المجتمعات العربية .

وليس من الصعب علينا أن نستقرئ الأهداف التي تقف وراء مثل هذه الموجة من الأغاني. ومثالا لا حصرا، هي:

أولاً: ليست من الفن الحقيقي في شيء.

وثانياً: ومما لاشك فيه أن هناك دوافع ربحية مادية تجنيها الشركات المنتجة لهذا الفن السيئ والهابط.

وثالثا: أننا نعتقد أن هناك دوافع لها علاقة بالغزو الثقافي الذي يتعرض له العالم العربي، بغية تجريده من قيمه الدينية ومثله وأخلاقه وحيائه، وتدمير شبكة الأمان الأخلاقية في الأجيال الشابة، تحت مظلة كاذبة من الحرية والتحرر والحداثة والعصرنة والعولمة، وهذا غيض من فيض.

مع العلم أن معظم ملحني أغنية اليوم الركيكة نظماً ولحناً وأداءً، هربوا من قوالب الغناء العربي كالدور – والقصيدة – والمواليا

- والموشح - والمونولوغ والأغنية الشعبية التراثية، إلى قالب الطقطوقة الخفيف، وكذلك إلى أنواع التأليف الموسيقي العربي كالبشرف واللونغا والسماعي والتحميلة والدولاب والمارش والتقاسيم، انتقل البشرف ليصبح بين يدي الأتراك واستطاعوا تطويره واللونغا التي بعدت عن آذاننا طويلاً منذ أن قدمها الموسيقار رياض السنباطي وسميت باسمه /لونغا رياض السنباطي/ وعبد الغني شعبان من لبنان وعبد العزيز محمد الذي عمل إضافة إليها البشارف والسماعيات، وكذلك أمير البزق محمد عبد الكريم وفؤاد محفوظ و توفيق الصباغ وجميل عويس وممدوح السمان، لم يأتي بعدهم أحد ألا أصحاب المواهب الدفينة التي منهم الفنان الشاب معن دوارة الذي سوف يسمعنا إلى بعض مقاطع من اللونغا والتقاسيم والألحان الشعبية والتراثية على آلة العود بعيداً عن صخب العولمة وتقنياتها في نهاية المحاضرة.

في اعتقادنا أن صمت الجهات العربية المعنية عن هذه الظاهرة أدى إلى تفشيها واستفحالها عبر الشاشات الصغيرة التي تشكل أهم متنفس ثقافي للمواطن العربي وبخاصة الأجيال الشابة في عصر ضعفت فيه القراءة ووسائل الحصول على مصادر الثقافة الأخرى، وإذا ما أضيفت إلى هذه الظاهرة المستوردة ظاهرة أخرى كالتّسميات باللغات الأجنبية، واعتماد أساليب نظم الشعر بالأسلوب الغربي وانتهاج أساليب النقد الأدبي الغربي وتكريسها مرجعية رئيسة، فان هذا في اعتقادنا يشكل انتكاسة ثقافية قد تكون نجمت عن فراغ ثقافي أو فهم خاطئ للثقافة والحضارة والرقي، وبالتالي فقدان الثقة بالذات والموروث الثقافي والتوظيف الخاطئ لحرية استيراد القوالب الثقافية الأجنبية، وفرضها على المواطن العربي بتسويقها عبر شاشات التلفزة العربية، وترويج اتجاهات ايجابية لها لديه وهو في الحقيقة لا يملك جهاز مناعة تربويا لحماية نفسه منها.

ونكون فعلاً كما قال موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب /كلما كانت الأغنية منهارة في معناها وموسيقاها، أصبحت نوعاً من التخريب الاجتماعي/.

أخيراً نتمنى النهوض بمستوى الأغنية السورية العربية لا أن يتم تسجيل الألحان بكلمات وأصوات رديئة، مع إيجاد رقابة على كل ما يقدم بشكل وضع الأيدي على الضمائر للمحافظة على تراثنا العربي الذي به نفخر، واستغلال المواهب الفنية الدفينة القابعة في منازلها والتي لو ظهرت مواهبها للعالم لجعلت حركة الثقافة الموسيقية تعيش حالة الانتعاش والتجديد، ولساهمت في إصلاح وتطوير مسيرة الأغنية العربية عامة لأنها انتمائنا التي نعتز ونفخر، فالموسيقى كانت وستبقى مظهر حضارة الأمم والشعوب وتاريخها المعاصر وخاصة موسيقانا العربية ومبدعينا أصحاب الكلمة واللحن والأداء الذين لابد لهم أن يقفوا وقفة عز وينقلوا معالم الأغنية إلى العالم أجمع كما فعل المطربان السوريان صباح فخري أطال في عمره وفهد بلان رحمه الله.

ساجدة الموسوي

شاعرة الوطن الجريح

بقلم:
عيسى فتوح

ساجدة الموسوي شاعرة عراقية مبدعة، ولدت في (حي العلوية) ببغداد عام ١٩٥٠، وتخرجت من كلية الآداب بجامعة بغداد عام ١٩٧٥، ثم عملت مديرة تحرير مجلة المرأة العراقية عام ١٩٨٢، وكانت عضوا في المكتب التنفيذي للاتحاد النسائي العراقي، والمكتب التنفيذي لاتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، قبل أن يشردها الاجتياح الأمريكي مع أولادها خارج العراق.

انتخبت عضواً في المجلس الوطني العراقي، وهو موقع رفيع لم تحظ به غير عشرين امرأة من بين مئتين وخمسين رجلاً انتخبهم الشعب، وكانت نائب رئيس لجنة حقوق الإنسان فيه، فلم يبعدها هذا المنصب المرموق عن الأدب والشعر، وبعد أن دُمر العراق، اتخذت من سورية وطنا ثانيا، واستأنفت نشاطها الأدبي فيه.

تقول ساجدة عن سيرة حياتها إنها طويلة، مثقلة بعناقيد الأسى وجرار الدمع، ومكتنزة باشراقات إنسانية من الفرح والألم... وهي لا تتذكر منها سوى ذلك البستان الكبير الوارف الظلال الذي كان يحيط ببيتها في بغداد، حيث كان يطيب لها أن تلعب مع إخوتها وأولاد حارتها، وتجلس تحت ظل نخلة باسقة، وتستمع إلى هديل يمامة راحت تبحث بحرقة عن ابنتها الضائعة... وبعد أن تعود إلى البيت كاسفة البال حزينة على تلك اليمامة التي فقدت ابنتها، يسرح خيالها مع اليمامة الصغيرة التي فارقت أمها، فتسرح للاحتماء في حضن أمها الدافئ. لكنها في الغالب لا تجده خالياً، فهي إما حامل أو مرضع، أو تهدهد أطفالها أو تقمّطهم... لذلك صادقت نجوم السماء البعيدة،

وطفقت تسهر معها، حين تنام على فراشها وحيدة فوق السطح، تتأملها وتسهر معها وتناجيها وتحاورها، وتشاطرها ما يختلج في أعماقها من أحاسيس.

كانت ساجدة البنت الوحيدة في الأسرة بين سبعة إخوة، وبعد أن تساعد أمها في أعمال البيت كانت تكتب وظائفها وتحتضن كتبها المدرسية، ولا تنام قبل أن تقرأ ما في مكتبتها الصغيرة من كتب جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) ومصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٤) وجبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١)... وكانت تحلق في أجواء أخيلتهم حتى وهي تغسل الصحون، أو تنظف البيت، أو تغسل ملابس إخوتها الصغار، وتهيم برؤى ساحرة تنهال عليها من بطون الكتب التي تقرؤها، فتنزلق الصحون من بين يديها على الأرض وتتحطم، فتعود إلى أمها باكية معتذرة، فتقول أمها: «متى تنتهين من تكسير الصحون؟ أليس كل هذا بسبب السرحان؟!» فتجيب ساجدة: «سأحاول... سأحاول...».

وتعترف ساجدة في مقدمة ديوانها (هديل اليمام) بأنها كانت تسرح كثيراً، وربما كان سحر القصائد والقصص التي تقرؤها يشدهها فتسرح... وبعد أن كبرت أجنحتها أخذت تحلّق في أجواء طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) وتوفيق الحكيم (١٩٠٢ - ١٩٨٧) وأبي فراس الحمداني، والمتنبي، وتغوص إلى الماضي لتفك أسرار امرئ القيس، ولبيد، والنابغة الذبياني وغيرهم من شعراء العرب...

* * *

في أواخر عام ١٩٨٩ غادرت العراق إلى لندن، حيث عينت معاونة للمستشار الصحفي في السفارة العراقية، وباشرت عملها في المركز الثقافي العراقي، فقضت هناك أربع سنوات، كان وطنها خلالها محاصراً وجريحاً، وقد نشرت وهي في لندن عشرات القصائد والمقالات في جريدتي (العرب) و(القدس العربي)، وبعد أن قُطعت العلاقات الدبلوماسية بين العراق وبريطانيا، عادت إلى وطنها عام ١٩٩٣ في وقت كان الناس يهربون منه، بسبب الحرب التي شنت عليه، وهي جريحة القلب دامعة العينين، بعد أربع سنوات من العذاب والألم... عادت لتواجه الحصار المفروض عليه، حيث لا دواء، ولا ماء صالحاً للشرب، ولا...

آثارها الشعرية

١ - طفلة النخل - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٩.

٢ - هوى النخل - وزارة الثقافة والإعلام - دار الرشيد - بغداد ١٩٨٣.

٣ - الطلع - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٦.

٤ - عند نبع القمر - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٧.

٥ - ديوان البابليات - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٩.

٦ - قمر فوق جسر المعلق - آرام للدراسات والنشر والتوزيع - عمّان ١٩٩٣.

٧ - شهقات - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٩٦.

٨- السُّرى لسهيل - بغداد ٢٠٠٠.

٩- رسائل إلى سكان الأرضْ (قصائد مترجمة إلى اللغة الإنكليزية) - نيويورك ٢٠٠٠ - بغداد ٢٠٠١.

١٠- تباريح سومرية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٤.

١١- هديل اليمام (مختارات شعرية) - مؤسسة علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق ٢٠٠٤.

شعرها

يبدو جليا من قراءة عناوين دواوينها الثلاثة الأولى (طفلة النخل) و(هوى النخل) و (الطلع) ارتباط الشاعرة ساجدة الموسوي الوثيق بوطنها العراق، منبت النخل الذي تعتبره رمز العزة والشموخ والإباء، والاستقامة، والتشبث بالجذور الضاربة في أعماق الأرض.

شعرها مفعم بالإحساس المرهف، والقلق المحض على الوطن الذي دمره الأعداء على مرأى ومسمع من العالم، وكيف افترست الحرب المجنونة الناس والأبنية والمكتبات، والمتاحف، ودور العلم، والجوامع والكنائس وأرعبت النساء والأطفال...

شعرها انعكاس لما حل بوطنها الحبيب الذي استحال جثة تحترق، والعالم كله صامت لا يحرك ساكناً، ودُمرت حضارته العريقة التي تمتد إلى آلاف السنين، والتهمته حرائق الحقد الأعمى بحجة نشر الحرية والديموقراطية في ربوعه، واضطر أبناؤه إلى بيع أعز ما يملكون لتأمين لقمة الخبز وحبة الدواء.

لكم حز في نفسها وأثر في أعماقها مشهد ذلك الأديب الذي حمل كتبه الأثيرة عنده، إلى شارع (السراي) وبسطها على الرصيف ليبيعها بأبخس الأثمان، فانهمر المطر، وبلل تلك الكتب التي جمعها بكد الساعد وعرق الجبين:

وجدته
على رصيف شارع السراي
يبيع ما لديه من كتب
عيناه تنظران للمدى
من يا تُرى سيشتري؟!
سألته: بكم تبيع البحتري؟
فلم يجبْ
من يا تُرى
يقايض النقودَ بالهموم والدموع؟
كأن في عينيه غابتي شموع
تلبّدت من فوقه السماء
وانهمرت دموع
تبلل الرصيفَ والكتبْ
تبلل القميصَ والهدبْ
في جمعة
في شارعِ السراي
أمطرت... على الكتب.

وتبلغ معاناتها ذروتها حين خرجت وسط الظلام لتشتري إصبع (فانتولين) لزوجها المريض الذي فاجأته نوبة من الربو الحاد، وكاد يختنق فلم تجد أي أثر للدواء، فتصب جام غضبها على (رالف ايكيويس) رئيس المفتشين الدوليين عن أسلحة الدمار الشامل في العراق الذي كان في ذلك الوقت عاكفاً على الخمرة فتقول:

أمشي في الظلمة أو شبه الظلمة
أتأبط همّي وبقايا يومي
أبحث عن إصبع فنتولين
للرجل الراقد
خلف شغاف القلب
وتحت العين
كدت من الوحشة والهم أصيح
فتردد صوتي الريح
يا من يسمع
من يحمل في جيبه
أو في بيته
إصبعَ فنتولين
أتكون حياةُ الإنسان مهددة
بدواء حجم الإصبع
من يتوقع؟
من يسمع؟
وحدي أمشي
الشارعُ يفضي للشارع
والحيُ إلى الحي
في السوق الخالي
أصيح بأعماقي - فنتولين -
فيجيء صدى الصمت
إلى قلبي المخنوق بدمعي
فنتولين...
مفقودٌ...
ومريضٌ ينتظر الظالمَ إيكيوس
إيكيوس في تلك الساعة
يشخر أو يسكر وأنا أتدمّر
إيكيوس يشرب خمراً
وأنا أشرب قهراً
من أين أجيء بإصبع فنتولين؟
اللعنةُ للظالم
والخزي لمن يذبح إنساناً
كي يتربعَ عرش العالم..!

وتستلهم تاريخ العراق القديم، وحضارته العظيمة، وتستعيد أمجاد سومر وبابل وآشور وأور، وتتساءل: أين حمورابي وجلجامش فتقول:

وتسألني كيف حالُ العراق؟
بعد عشر عجاف
من العصفِ والقصفِ
والجوعِ والبردِ؟
أمازال جلجامشُ الأمسِ
يبحث عن عشبةِ للخلودِ؟
أحقاً تموت الرياحينُ في كفّه؟
ويعود يواصل تشييدَ أبراجه؟...

وتتألم لما حل بالعراق من قتل وفتك وتدمير، وهي بعيدة عنه في لندن، فتتمنى لو تعود إليه في غمضة عين، وقد سُدت في وجهها كل سبل العودة فتقول:

أبحث عن باخرةٍ أو زورق
يوصلني لبلادي..
فوق مطارٍ مغلق
وجوازٍ عاطل...
أبحث عن طائرةٍ تقلع بي
لحدود بلادي...
أبحث عن درب أسلكه
فأصير على باب بلادي
آه كيف انسدت
في وجهي كلُّ الأبواب؟!

كيف احترقت في قلبي
جميعُ الأعشاب؟
أصرخ يا بغداد... لن يأتيَ صوتٌ
أو بعضُ جواب...

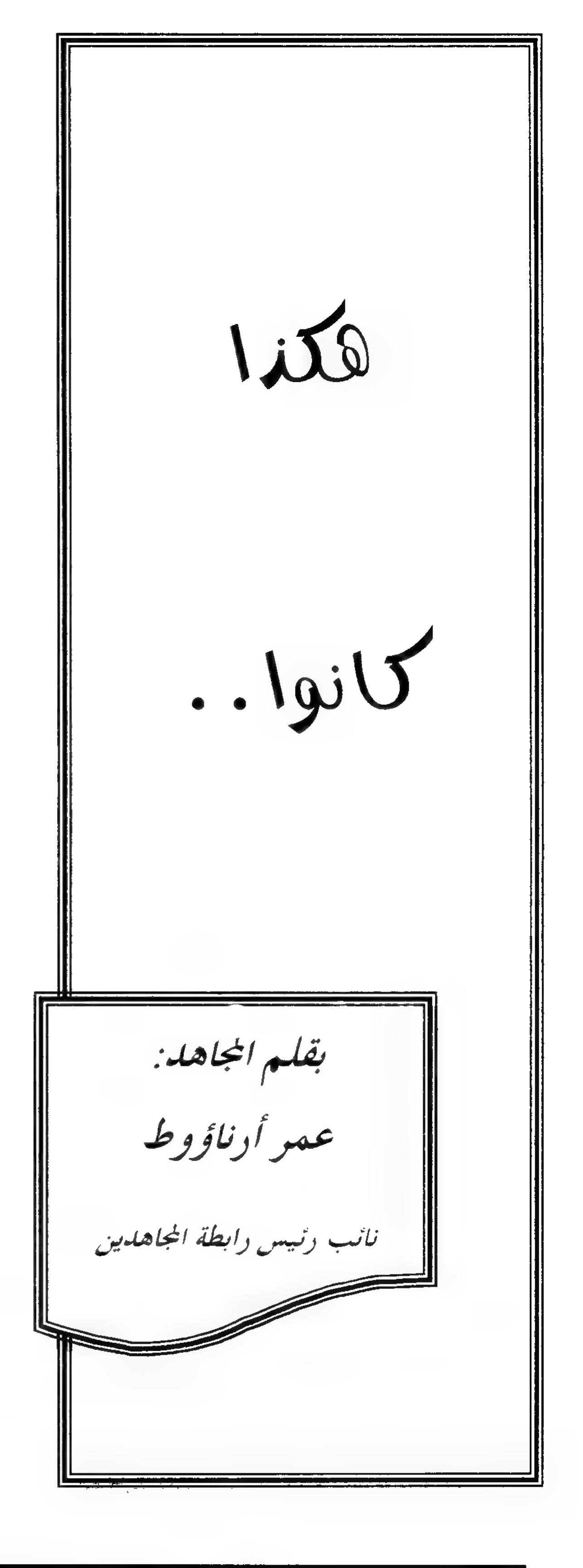
وتهيم بحب وطنها إلى حد الوله، هذا الوطن الذي عشقته منذ طفولتها، وعرّش حبه على شعرها وثيابها، وظلّل أيامها، وعطّر أوراق كتبها:

أحببتك حتى عرّش وردُ الحب
على شعري وثيابي
ثم تنامى بستان خزامى
ظلّل أيامي
عطّر أوراق كتابي...
أحببتكَ منذ طفولة أحلامي
وكثيراً ما كنت أشذّ عن الدرس
أخرج من كل الصفِّ
أطير على قمم الغيم
أحلّق في أبعادك
أغسل بالضوءِ ثيابي
تحت سمائك
كنت أحلّق كالعصفورة بين بساتينكْ
أو فوقَ غلالكْ
أتمرّى بالماءِ الأزرق
وأنام على أحلى زورق
أسافر في موج الريحِ
وجبال الفستق
كنت أحلّق وأحلّق وأحلّق...

وتصور بدقة فائقة فظاعة الاجتياح الأمريكي لوطنها، وكيف امتزجت مياه نهر دجلة بدماء الأطفال الأبرياء، وحبر العلماء كما فعل هولاكو التتري قبل عدة قرون فتقول مخاطبة مصور إحدى وكالات الأنباء:

صوّرنا يا مندوب
صور أحفادَ حمورابي
أسرى لقراصنة العصر
بابل - زهو الدنيا
يجتاح رابيتها طوفانٌ دخانٌ وحريق
غرقت دجلةُ ثانيةً
بدم الأطفال وحبر العلماء...
ذي بابل من أشرقت الأمس على الدنيا
دارت سكينُ الغاصبِ فوق النحر
جزّت ما بين وريد ووريد...
بابل تصرخ والدنيا تنظر...
من يسمع؟ من يحكم؟ من يحسم؟
إن كان الخصمُ هو الحاكم
ميزانُ العدل بكف القاضي مقلوب
صورنا يا مندوب...
النفط لهم ولنا الجوع
الماء لهم ولنا العطش المر
ربيعاً بعد ربيع...
الأمن لهم
ولنا الرعب من القصف الوحشي...
صورنا يا مندوب...

سيبقى شعر ساجدة الموسوي شاهدا حيا وناطقاً على مرحلة خطرة ومؤسية من حياة العراق، والنكبات والدواهي والكوارث التي حلت به، فدمرت حضارته، وشردت أبناءه في مطلع القرن الحادي والعشرين!



بإيجاز مختصر جداً تمكن عملاء المخابرات الإنكليزية أثناء الحرب العالمية الأولى التي ابتدأت عام ١٩١٤ وانتهت عام ١٩١٨ من إقناع الشريف حسين بن علي والي مكة والحجاز وأميرها بأنه إذا تعاونٍ معهم يصبح ملكاً على سورية الطبيعية شمالاً جبال طوروس وشرقاً إيران وغرباً البحر المتوسط وجنوباً البحر العربي، وذلك فيما إذا أعلن الثورة العربية ضد الدولة العثمانية وتحالف معهم في حربهم الضروس ضد العثمانيين والألمان، ودعوه للحضور إلى القاهرة بمصر وحضر في نفس الوقت مندوب ملك بريطانيا مكماهون وحصل الاتفاق هناك على إعلان الثورة العربية وكان الأمير الهاشمي حسين لا يعرف مطلقاً بأن هناك اتفاق سري بين الإنكليز والفرنسيين يُعرف باسم الجاسوسيين سايكس – بيكو، ينص مختصراً على تقسيم سورية الطبيعية على الشكل الآتي:

فلسطين والأردن للإنكليز ولبنانٍ وسورية لفرنسا وتعطى فلسطين وطناً قومياً لليهود حسب وعد بلفور الذي وضعه الإنكليز أعداء الأمة العربية والإسلامية طول حياتهم المعروفة عنهم بالغدر والكذب والظلم والاحتلال لكل الممالك التي كانوا يستعمرونها أو ينتدبون عليها، ويعرف هذا الاتفاق بوعد بلفور.

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ نزل الجنود الفرنسيون على الساحل السوري لواء إسكندرون حتى الناقورة في حدود فلسطين، وكان الجيش البريطاني يتقدم مع الشريف فيصل وأخيه زيد صوب دمشق التي دخلها الجيش العربي قبل الإنكليز ورفعت أعلام الاستقلال على كافة البلاد السورية، وفي نفس الوقت اشتعلت الثورات السورية المتلاحقة. في كل الساحل السوري وجباله وهضابه، فكانت أوائل هذه الثورات ثورة صبحي بركات في الإسكندرون، والزعيم البطل إبراهيم هنانوا في جبل الزاوية كفر تخاريم.

والشيخ المجاهد صالح العلي في جبال العلويين، ومعه المجاهد عمر البيطار وإخوته في جبل صهيون ثم الدناتشة في تلكلخ، وفي نفس الوقت كانت ثورة الشهيد البطل أحمد مريود والأمير محمود الفاعور في الجولان وفي بعلبك جاهد معهم المجاهد قاسم ملحم وبقيت هذه الثورات متواصلة في نفس الوقت منذ عام ١٩١٨ إلى معركة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ الذي استشهد فيها وزير الدفاع البطل يوسف العظمة نظراً للفارق الكبير بين القوتين الوطنية والفرنسية المهاجمة، الجيش العربي كان ٣٠٠٠ جندي نظامي والمتطوعين كانوا ١٥٠٠ جندي، والقوة الغاشمة الإفرنسية كان تعدادها ١٢٠٠٠ مزودين بغطاء جوي ومجهزين بالآليات والمدافع المتنوعة والكثيرة.

وفي يوم ٢٦ تموز دخل غورو دمشق وسلمه مفاتيحها العميلين نوري السعيد وجميل الألشي وكانا ضابطين في الجيش التركي سابقاً وبعدها في الجيش العربي، وأول عمل قام به غورو لما دخل دمشق ذهابه فوراً إلى قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي ووضع سيفه على قبر هذا البطل السلطان العظيم وقال له قم يا صلاح فها قد عدنا، وهذا ما قال مثله الجنرال الإنكليزي اللنبي عندما دخل جيشه مدينة القدس قال الآن انتهت الحروب الصليبية. وذلك بتاريخ ٩ كانون الأول ١٩١٧.

ولما سمع هذا الكلام لويد جورج رئيس وزراء إنكلترا رفع الجنرال اللنبي إلى رتبة المارشالية وأعطاه لقب اللوردية. ولم ترتاح القوات الفرنسية بعد دخولها دمشق واحتلال المدن السورية كلها لجأ الجنرال غورو بعد مغادرة الملك فيصل عن طريق الخط الحديدي دمشق – درعا إلى تقسيمي سورية إلى خمس دويلات، دولة دمشق، دولة حلب، لواء سنجق إسكندرون، دولة العلويين، دولة الدروز. وفرض على جميع المدن السورية المبالغ الباهظة وتسليم مئات بل ألوف البنادق والذخائر على السلطات الفرنسية، وحكم بالإعدام على عدد كبير من رجالات سورية ومجاهديها وغالبيتهم غادروا البلاد هرباً وبعضهم دخل السجون والمعتقلات وعم الفقر والبلاء معظم المدن والقرى السورية وأصاب كثير من الناس التشرد والبطالة والنهب وغير ذلك من المظالم التي لا تعد ولا توصف.

بالإضافة إلى حوادث ١٩٢٢ بجبل العرب بعد لجوء المجاهد أدهم خنجر واعتقاله من قبل الإفرنسيين والمعارك الضارية التي حصلت بسبب هذا الاعتقال الجائر وتخليصه الذي كلف عشرات الشهداء ومئات القتلى والجرحى من الطرفين كل هذه الأمور والمظالم التي ليس لها مثيل من قبل الضابط الفرنسي كاربتيه المسؤول الأول في جبل الدروز هيأت هذه الأمور الوحشية لإعلان الثورة الكبرى عام ١٩٢٥ بقيادة قائدها العام المجاهد الكبير سلطان باشا الأطرش، والتي دامت سنتين كاملتين وانتقلت تلقائياً إلى الغوطتين بدمشق وإلى القلمون وإلى حماه بقيادة البطل فوزي القاوقجي الذي كان يحمل أعلى رتبة في جيش الشرق وضع هذه الرتبة تحت قدميه وأشعل الثورة بحماه وضواحيها والقلمون وعلى رأسهم المجاهد الكبير جمعة سوسق وأسرته المجاهدة ومعظم رجالات القلمون وكان معه أبطال دمشق والغوطتين يقودون المعارك الطاحنة مع القوات الفرنسية المدججة بكل أنواع السلاح الفتاح ورغم التفوق بالعدد والعدة بالقوات الفرنسية المدعومة دائماً بالجيوش الجرارة التي عن طريق البحر من المستعمرات الفرنسية العديدة رغم كل هذه الحشود فقد تمكن الثوار والمجاهدين من احتلال دمشق كاملة واضطر الجنرال ساراي أن يفر من بيت العظم بلباس امرأة وذهب إلى قلعة غورو بالمزة ومن هناك بدأ القصف العشوائي على حي الميدان وحي الشاغور بصورة خاصة وحرقت معظم بيوت هذين الحيين المجاهدين

واضطر الأهالي للهرب إلى أحياء دمشق ولبنان وغيرها من المناطق حفاظاً على أرواحهم وأطفالهم وقابل بعض علماء ووجهاء دمشق الجنرال ساراي لتوقيف القصف الذي دام ثلاثة أيام متواصلة، فرضي بذلك شريطة مغادرة المجاهدين دمشق وذاهبهم من دمشق للغوطتين والقلمون، وللتاريخ لا يستطيع أي إنسان تابع نضال سورية المنقطع النظير إلا أن يذكر هؤلاء الشهداء والمجاهدين وعلى رأسهم المرحوم نسيب البكري والشيخ حجازي الكيلاني مفتي الثورة وإخوته والشيخ محمد الأشمر وحسن الخراط والأمير عز الدين الجزائري وشوكت العائدي وسعيد عكاش قائد القطاع السادس والشيح ديب الشيخ وصلاح العرجا وأبو صالح الكلاس وعبد القادر سكر وأولاد الخال وشيخ الشباب ومحمود خدام سروجي وسلوم وغيرهم من المجاهدين من أحياء دمشق والشهيد أحمد الملا من حي الأكراز، وإن معظم أحياء دمشق لم تقصر في تقديم المجاهدين والشهداء لهذه الثورة الباسلة والشجاعة التي دامت سنتين ونيف.

ومثلاً أحياء الصالحية، الأكراد، مسجد الأقصاب، العمارة، سوق ساروجة، باب سريجة، باب الجابية، العقيبة، ساروجة، الميدان التحتة والوسطى والفوقة وجميع قرى الغوطتين، والقلمون بكل قراه بالإضافة إلى ثورة المجاهد شاش باشا رمضان في دير الزور وثورات القبائل العربية في الجزيرة والرقة ودير الزور والحسكة وكل المحافظات الشرقية وأقضيتها وقراها.

علما بأن الشهيد أحمد مريود انتقم منه الفرنسيين ووضعوا جثمانه الطاهر في ساحة المرجة ولكن أهل الشام المخلصين للجهاد والمجاهدين غطوه بالورود والزهور ودفن في الحي المجاهد قبر عاتكة، وكانت حصيلة هذه الثورات بالأرقام الصحيحة (٢٠٠٠٠) عشرون ألف شهيد، وكلفت الشعب العربي السوري (١٠,٠٠٠,٠٠٠) ليرة عثمانية ذهبية وكان تعداد الشعب السوري لا يتجاوز أربعة ملايين إنسان واقتطع الإفرنسيين ظلما وعدوانا مساحة ٢٤٠,٠٠٠ كم٢ من سورية الطبيعية وهذه مناطقها: كيليكيا، الإسكندرون، أعطيت للأتراك حدودنا مع تركيا ٨٥٠كم٢ بعمق بين ٢٠ إلى ٣٠ كم٢ أعطيت للأتراك، فلسطين والأردن كاملة لسورية أعطيت للإنكليز والإنكليز سلمت فلسطين لليهود، قتلة الأنبياء والرسول والذين آمنو ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا وزادو كفرا.

وللتاريخ أيضاً مر على رئاسة الجمهورية عشرة رؤساء أولهم كان محمد علي العابد وآخرهم الدكتور ناظم القدسي ولم يخطر على بال أحد منهم أن يكرم المجاهدين والشهداء وأبناء الشهداء سوى القائد الخالد حافظ الأسد الذي أصدر مرسوماً أعطى به ١٢٧٧ مجاهداً تنتقل رواتبهم غير منقوصة إلى زوجاتهم وأعطى أبناء الشهداء وزوجاتهم وأسرهم السكن المجاني على حساب الدولة ورفّع الشهداء مرتبة لكل واحد منهم وأنشأ مدرستين لبنات وأولاد الشهداء ورعاهم كما يرعى أولاده ويكفيه فخراً إلى يوم القيامة أن الرسول العظيم محمد ﷺ قال عنه وعن أمثاله: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة إن أكرم بيت عند الله بيت فيه يتيم مكرم).

وقول السيد الرئيس: (الشهداء أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر).

ونحن أبناء المجاهدين وأحفادهم في رابطة المجاهدين نأمل من السيد الرئيس بشار الأسد الذي رفع رأس العروبة والإسلام في كل المؤتمرات العربية والإسلامية وصمد صمود الجبال العاتيات تجاه كل الضغوط الغدارة لسورية وكان شعاره دائماً حفظ كرامة الشعب العربي والإسلامي حفظه الله ذخراً وفخراً للعروبة والإسلام طول الحياة أن ينظر إلى هؤلاء نظرة العطف والمساعدة المعروفة عنه.



يا ميسلون..



يا ميسلون حروف أنت من بلدي
تسيلُ حبّاً وأفكاراً وأوزانا
جاءت ترصع بالنعمى مواكبنا
وتزرع المجدَ وِرداً في حنايانا
وأنت من عالم تحلو شمائله
بالسيف والرمح والقرطاس أحيانا
أنت الفراديس قد ضمت فوارسنا
وصرتِ رمزاً وتيجاناً والحانا
فكيف أسرق منك الوجد يسكبني
بالكأس يوسفُ زلزالاً وبركانا
يا ميسلون حملنا الوزر من زمنٍ
في حين تثقلنا أوزارُ موتانا
عَاش العدوُّ على أكبادنا زمناً
واليوم يسرق منا الرملَ كثبانا
ويسرق النفط والأحجارَ من بلدي
ويزرع الأرض أحقاداً وأضغانا
يوزع العربَ سنّيّاً ورافضةً
حيناً وينزرع بالأمصار حيتانا
قد فرقتنا يدُ الباغي ملطَّخةً
ومزّقتنا خرافاتٍ وأديانا

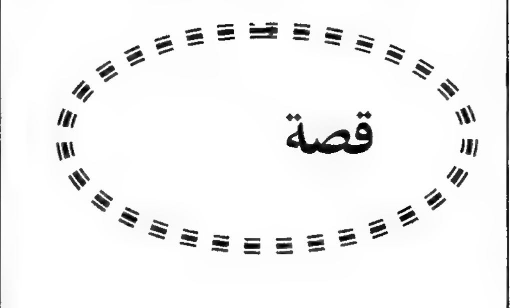






وحملتنـــا علـــى جهـــلٍ مصـــائِبنا
وعيَّشَـــتْ جهلنـــا بـــالأرض غيلانـــا
وحملتنـــا علـــى جهـــلٍ جرائرهـــا
وأرهقتنـــا بمـــا أحيتـــه طغيانـــا
مـــا غابـــت الأفعـــى مـــن أوكـــار مربعنـــا
حتـــى انتشـــى رأسُ أفعـــى في نواياـنـــا
وازداد شـــعبي ضـــنىً وابـــيض شـــاربه
وعـــاش يرمـــي مـــدى التـــاريخ نيرانـــا
لم يبـــق منـــه طـــوال العمـــر جاريـــةٌ
إلاّ ابتلاهـــا عـــدو الله حرمانـــا
يـــا ميســـلون أنـــا أهـــواك منـــدفعاً
إلى كرومـــك فيمـــا جـــدتِ نشـــوانا
أقبلـــت نحـــوك مشـــتاقاً إلى طـــرقٍ
رويتهـــا بـــدم الأحـــرار إيمانـــا
أقبلـــت نحـــوك مفتونـــاً ومندهشـــاً
ممـــا يقـــدم أهـــلُ الحـــبِّ قربانـــا
إنـــي أنـــادي بـــأعلى الصـــوت يـــا وطـــني
إنـــي أحبُّـــكَ أشـــياخاً وشـــبانا
أحـــبُّ فيـــكَ أزاهـــيراً مفتّحـــةً
وســـنديانا وبلوطـــاً وأخـــدانا
أحـــبُّ كـــلَّ ريـــاح المجـــد إن نفحـــت
وأكـــره الجـــبن مســـؤولاً وفرســـانا
يـــا ومضـــة المجـــد غـــورو خـــاف شـــعلتها
ودمـــرتْ عرشـــه جيشـــاً وتيجانـــا
عليـــك مـــني ســـلام لا انقطـــاع لـــه
هديـــة أرســـلت مـــن عمـــق بلوانـــا

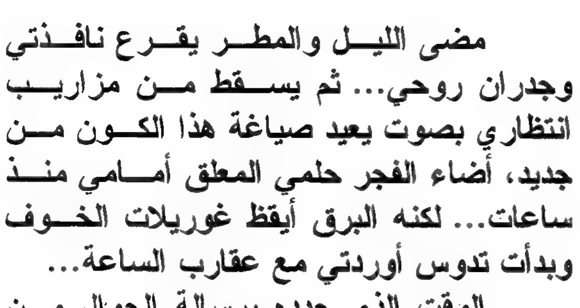


لم أنم حتى أستفيق

القصة الحائزة على المرتبة الأولى في مهرجان القصة القصيرة في الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين





مضى الليل والمطر يقرع نافذتي وجدران روحي... ثم يسقط من مزاريب انتظاري بصوت يعيد صياغة هذا الكون من جديد، أضاء الفجر حلمي المعلق أمامي منذ ساعات... لكنه البرق أيقظ غوريلات الخوف وبدأت تدوس أوردتي مع عقارب الساعة...

الوقت الذي حدده برسالة الجوال من رقم لا أعرفه قد اقترب ونبضي تجاوز الحد الطبي وأعلن خطأ كل معايير الطب التي تعلمتها.

ارتديت حلمي المعلق أمامي..غطيتِ ملامحي بمظلة سوداء... خرجت... ركبت حافلة تسير متعثرة بأشلاء أحلامِ ركابها المبعثرة بين شارات المرور وصلت المكان الصديق الذي امتلكني طريقه منذ وصلتني الرسالة.

كان البيت يستدعي ربع ساعة من المشي بين حارات تتحدى تقنيات العصر وغرور الحافلة بيوت صعدت الجبل المحيط بمدينتي رغما عنه فعاقب الجبل سكانها بأدراج تأكل قلوبهم والأحذية.. بدأت أصعد... المطر تواطأ مع سقوط قلبي إلى قدمي، جعل الناس تدخل ذاتها وبيوتها وبلل متعة التلصص القابعة على النوافذ فأخذتها الأيدي إلى جانب المدفأة.

مازلت أصعد وكل درجة تزهو بارتفاعها كأني على قمة ترتفع ألف ميل عن سطح العالم.

وصلت... أحسست وأنا أقرع الباب أني هويت كشلال عن هذا الارتفاع... وأني صرت زبدا يهرول بكل الاتجاهات فتح الباب، دخلت كظل يبحث عن قامته وجدته يشعل المدفأة وكانت نيرانها تأكل ما تبقى فيه من أغصان أقفل علينا باب العيون بقوة... وأبعدني عن منطقة تنازل لها سطح البيت المصنوع من الزنك عن فتحة كي تريح ما يتراكم عليه من مطر فيسقط على الغرفة كمزراب داخلي.

سحبني إلى زاوية أخرى بقوة أسقطت كل ملامحي عني دفعة واحدة... داهمني بقبلة خلعت عني آلاف السنين ثم أدخلتني كهوفا أعرف رسوماتها وأشتهي لمسها منذ قرون.

كان إيقاع القبلة يتصاعد كإيقاع أفريقي عتيق... تحولت طبلا تحت يد ذاك الزنجي... ثم تحولت زنجية تضرب الأرض بأقدامها وتوقضها بصوت طقطقة الحلي.

أدركت أن السماوات ليست سبعا فقط فأنا في لحظة واحدة لمست مئة سماء... أخذت يداه تتسلقني كخلية نحل سُرق عسلها واشتمت رائحته للتو... وراحت عيناه تأمران عيني برجاء هذه النظرة تعرفني وأعرفها... تعيده لي... وتمحو كل الزمن الذي أكل قلبينا. لكنها الآن تحولني قطرة من هذا المطر تنزلق على حدة الزجاج....

أشهق... أبتعد... يناديني: (تعالي، أنا لن ألاحقك أنا لا أحب الملاحقة).

الملاحقة... كلمة تجعله يرتجف.. ترميه في بئر فقد دلوه الحبل وأخذ يصطدم بجدرانه أقترب... أضع فمي في أذنه... أهمس: هنا لا يلاحقك غير نبضي وحلمي يمسك رأسي بيديه... يغرق عيني ببحار عينيه... يهمس: (قولي جسدي أيضا، لا تخجلي بالبوح، الياسمين لا تقتله شدة بياضه، تغتاله فقط شدة العطش....)

أبتعد... أرتجف... لكنه يضع يديه في شعري... يشده... يناديني: (كوني دائما كما المطر، لا يستأذن الأرض ولا يستأذن السماء،لا تخافي، اقتربي، أنا لن ألاحقك)

الكلمة تعيده للبئر... ومن قاعه يبدأ بالهذيان: (ليسوا هم من يلاحقني الآن، ليسوا هم من أخافهم في كل لحظة... من يركضون في حلمي... ويتربصون تحت الوسادة...

يا غالية مذ قبضوا علي ذات فجر... كانت المآذن كلها تتلو قرآنها دون تناغم أو اتفاق... لكنها لم تنقذني...

وحين أزاحوا عن عيني الغطاء انتظرت حتى أنهى الضابط صلاة الفجر... لف سجادته.. وكنت أحس أنه لفني بداخلها إلى الأبد... وقف.. صار يصرخ: ألا يكفيكم أنكم ضيعتم ماضينا وتراثنا تريدون الآن المتاجرة بأوطاننا باسم الحرية!

الحرية كانت آخر كلمة سمعتها قبل الغيبوبة التي تلت صفعاتهم وأحذيتهم التي اجتاحت جسدي ووجوهكم كانت آخر حبل تعلقت به قبل السقوط).

مددت يدي إلى عينيه... حميت دمعة من عريها... ثم غطيت نزيفه بمنديل روحي الممزق عندها خرجت مني امرأة أخرى كانت قد استأجرت غرف روحي منذ زمن... جلست بجانبي أعدت القهوة... قالت المرأة الخارجة مني للتو: ألم نستطع أنا وهذا المكان أن نكون ولو لساعة فضاء يخرجكَ من ذاك البئر.

تنهد... تعلق بجدران البئر... تزحلق... هوى ثم قام، وأخذ يصعد مبللا بطحالب وأشنيات تسكن شفاه البئر وشفاه المتكلمين والمؤذنين....

حاوط خصري كنهر خلق من أصابعي فجأة... ثم بدأ يفيض:

(لم يكن الاعتقال يوما هو ذاك البئر... البئر هو لحظة خروجنا من قريتنا كما قال أبي...

هو لحظة وفاة أمي التي قدمتني للحياة على الطريق المؤدية للمخيم... وفارقتها قبل الخيمة بخطوتين...

هو اللحظة التي اغتصبتنا عناوين الكتب الحمراء قبل أن نعشق ما بداخلها هو اللحظة التي تحول فيها تمثال عشتار على جبالنا إلى حجارة لرجم الزانية...)

صعدت يداه صدري لكن فمه عاود الهذيان: (أمي كانت غيمة... لكنها لم ترضعني...

لذا أنا لا أليق بالمطر... فلا أدري إن كنت أليق بصدرك الآن...).

ضمته المرأة الخارجة مني للتو... ضمّته بقوّة أعجز عنها... قبّلته... أورقت عيونه كربيع مباغت.. لكنّ فمه عاود الهذيان: (قبل أن يأذن ذاك الرب ونخرج كنا كلنا نغني مع جدران الزنزانة... ولا نكمل الأغنية... نتركها تحلق وتسبقنا إلى أمكنة تنتظرنا حين نعود... أتعرفين؟؟ لم أكن أحس أني سجين كانت عيناك أجنحة تحملني دائما خارج القضبان... بعد خمس سنين ونصف البكاء خرجت... سبقتني قدماي إلى أقرب بوابة كانت تعرفني... قرعتها... فتحت.. لاقتني دهشته.... صديقنا ماهر ذاك الذي اغتصبتنا الكتب معا.. ضمني ..لكن خوفا أرعبني سكن صوته وعيونه... حمدَ الله على سلامتي... اعتذر لأنه الآن مشغول جداً... ووعد بالزيارة بعد حين ونصحني أن اذهب إلى أهلي... وأرتاح.

حينها أحسستُ أن كل الأغاني التي غنتها زنزانتي معي تحولت حجرا تقذفه قدمي أمامي... مشيت... أوقفني صوت صديقنا سعيد ذي الأنف الطويل أتذكرينه؟؟ ذاك الذي كان يصنع النبيذ والشعر بيديه.. وكان بعد كل محاضرة طويلةَ عن حقوق الإنسان والمرأة وعن حرية الفكر يقرع نخب داليته ويجبرنا جميعا على تجرعه دفعة واحدة... لاقاني وصعقت عيناه كمن أصيب بصدمة... ضمني عرفني بابنه ذي الأربع سنوات... الذاهب معه إلى صلاة الجمعة... كانا نظيفين...أنيقين... هنأني بالسلامة... سأل عن تاريخ خروجي... ثم اعتذر كي لا تفوته الصلاة... مضى ولم تفح منه رائحة أية دالية..

وصلتُ بيتنا... لاقتني زوجة أبي... لم تزل زغرودتها تطن في أذني.. هي المرأة الحديدية كما كنا نسميها أنا وأخوتي لكنها مثل الحديد حادة وجريئة.. أحبت أبي كثيراً وما زالت تحاول أن تصير غيمة... زغرودتها قفزت بأختي إلى البوابة... أختي التي حولها حضوري إلى طفلة تتلعثم بكل مفردات العالم... ولا تجد كلمة تسع دهشتها...

هذا المهرجان استدعى أخي أيمن ذاك الذي تركته طالباً في البكالوريا وكم كانت حياتي في الجامعة وعلاقتي بأصدقائي تغريه... كان يأخذ منا الكتب.. لكنه يعيدها قبل الوقت اللازم لقراءة حتى العنوان... وفي المساء كان يتباهى بمعرفته بها خاصة إذا كان في الجمع جنس لطيف وخفيف.

أخي هذا. لم يزرني أبدا في السنة الأخيرة لسجني... دهش لخروجي تقدم تلبسه بذلة تحاول أزرارها الهروب منها إلى اللا عودة... ضمني بتثاقل... ثم رماني بنظرة من جليد نظرة وحدها تلاحقني في كل مفترق تدخلين بعدها... وأعرف أن أختي هي التي بلغتك بي على الجوال بمتعة مواربة يرتديك ثوب وحلم... لم تزلي صاحبة الإطلالة الآسرة...

تمسكين يدي بيديك الاثنتين تقولين: اشتاق لك ياسمين الحارات... أتمسك بيديك كأني ياسمينة تتمسك بعطرها... تقترب أختي وتشير إليك غامزة :صديقتنا الغالية سوسن تخرجت دكتورة قد الدنيا لكن كان الله بعونها فأمراضنا مستعصية... عندها تهربين من ثقل الموقف وتعلنين كأنك تشخصين مرضاً: هناك عرض اليوم لمسرحية الاغتصاب لسعد الله ونوس تعالوا نشاهدها لأنه بعدها سنشن على بعضنا حربا اشتقنا لها من زمن.

في المسرحية تنظرين لي في مشهد الاغتصاب وتفتشين عن مرجان حملته معي

من رحلتي الطويلة تلك ذات الخمس سنين ونصف البكاء.

نخرج تضيق الأرصفة بالسؤال: أأنت مع سعد الله ونوس بأن نسمح إلى جانب حقدنا المشروع برؤية إنسانية ما للإنسان الإسرائيلي؟؟

أخاف أن أجيبك أني لم أعد لم أعد أملك رأياً.. كل ما أملكه هو عيونٍ أصدقائي وعيون أخي أيمن المتربصة بي أبداً... في الطريق تسيرين بقربي وتهمسين: سيجتمع غداً في بيت صديقتنا القديمة سراب أصدقاء كثيرون جدد يجب أن تأتي فهم يريدونٍ أن يستمعوا لك وأن يعرفوا عن تجربتك تحديداً.

عندها تذكرت وجه الضابط حين اجتمع بي قبل خروجي بيوم ومعه مجموعة أوراق تنتظر توقيعي وفمه يفتح ولا يغلق كسمكة قرش وهو يرشقني بالوصايا الألف: (يجب أن تعرف أيها الكلب أنه حتى لو خرجت من عندنا فنحن سنلاحقك في كل مكان وأن عيوننا تصل حتى غرفة نومك وأن وجودك ضمن أي تجمعٍ أو نشاط سيجعلك بأسرع مما تتخيل ضيفاً عزيزاً عندنا مرة أخرى..) لكنك تقولين وكأنك تعرفين بما أفكر: لا تخف المكان آمن ويجب أن تأتي.

في المساء زارنا عمي كي يسلم علي لكن وجهه هرب من عيوني وعرفت من خلال الحديث أن عمي قد باع المكتبة التي غذت أرواحنا وأنه افتتح بدلا عنها محلا لبيع الشاورمة..

أول ليلة لحريتي كانت أطول من كل ليالي زنزانتي لكني لم أنم حتى أستفيق مضى الليل ثم جاءت الشمس وهي تصنع حول روحي قضباناً جديدة لها طعم صدأ لم أعرفه طيلة سجني.

ذهبت إلى بيت صديقتنا كما اتفقنا وهناك لاقتني عيون كثيرة معظمها فارغ لا يعرف مما هو فيه غير الضياع وبعضها سألني بخوف هائلٍ فقط عن تحمل السجن والتعذيب.

عدت من بيت صديقتنا وأنا أشفق على هذه العيون من كل السجون الواسعة التي تنتظرها لكني شممت وأنافي طريق عودتي رائحة كلاب تلاحقني.

أكملت طريقي باتجاه جامعتي... وأنا أحس أنها وحدها القادرة على إخراجنا من زنازيننا لكني وجد ت نفسي مطروداً من كليتي... رميت بجثتي على مقعد في الكلية ولم تسطع كل زنازين العالم أن تمنع دموعي من الفرار... لكن صوتاً دافئاً أعادني للحياة كان صوت محمود زميلي في الدراسة محمود الذي عشق كليتنا لم يكن يعنيه شيء غيرها تركته طالبا في السنة الثانية وهو الآن يعد لنيلِ الماجستير... عانقني بحب... حزن كثيراً لخسارتي دراستي... دعاني كي أذهب معه فورا إلى بيته... قدم لي عنوانه وطلب مني أن أعتبره ملاذي دائماً.

عدت إلى بيتنا أجر روحي معلقة خلفي... وقبل أن أدخل حارتنا سمعت صوتك يهمس مرتجفاً: تعال لا تكمل الطريق لقد جاؤوا إلى بيتكم قبل قليل فتشوا كل قطعة فيه نقبوا كل شبر، أرجوك اذهب إلى أي مكان يسعك أرجوك.

تكسرت السماء فوق رأسي.. لم أجد غير بيت محمود... بقيت عنده يومين كانت مساعدتي له في إتمام دراسة الماجستير هي نافذتي الوحيدة على روحي... لم أكن أخاف الكلاب التي تلاحقني... وحدها عيون أصدقائي وعيون أخي أيمن تحرمني من النوم.. اليوم عاد محمود من الجامعة متأخراً وشاحباً... أخبرني أنهم استجوبوه... وأنهم سألوه عن علاقته بي... عندها قررت أنه أخر يوم لي عنده... محمود يستحق الحياة... لكني تجرأت وطلبت منه أن يسعك بيته معي لساعة من

العمر... استعرت جواله... هاجمتني كل صواعق العالم قبل أن أرسل لك الرسالة عبر حمَامٍ هذا العصر... لكنها يدي.. هربت مني... كتبت لك وأرسلتها... وها أنت يا قرنفلة الروح الآن هنا)

توقف... استفاق من هذيانه... أشعل سيجارته... رشف قهوتي التي بردت... أمسك بي وقادني إلى الزاوية التي يسقط عليها ذاك المزراب الداخلي... أغرق رأسينا بالمطر... لكن المطر الذي سقط على خدودنا كان له طعم الملح...

المطر... حرر شعري من جدائله... وأيقظ المرأة الخارجة مني.... وسلمها مفاتيح الحياة..

اقتربتْ.. طوقتْ عنقه... حكّت قلبها بأشواك ذقنه... وأودعت روحها في عينيه...

لكنها أصابعه طافت على وجهي مشكلة لي ملامح أخرى... ابتعد... جلس ناداني: (أرجوك ارقصي قليلاً، وحده خصرك يعيد لهذا الكون النبض واللون سأغني لك المقطع الأخير من الأغنية: (خلي المضي من أيامك يسقي النبت من أيامك حطي إلي خلفك قدامك تلقي البلد عامرة الليلة)

رقصتُ بغنج لا يعرفه الطب... وتذكرتُ أن الإنسان حين يعيش الحب بذاك الحب يتصالح عنده جهازاه العصبيان الودي ونظيره ولأول مرة فكرت بالاسم... فوحدها لحظات العشق تجبر هذين المنفصلين أبدا على العمل معا بتناغم وانسجام... وحدها تحرض القلب... والأوعية والغدِد وتجرها خلفها....

رقصتُ... وكنتُ أحس بخلاياي ترقص معي... أدركت سبب ارتفاع حرارتي التي وصلت أعلى من السقف...

نهض... صعدت محيطاته ركبتي... دار بنا الجبل الذي يحيط مدينتي... أحسست أني أشم رائحة كل حارة فيها... وأن السماء تسير في الآن في شوارعها حافية لكنه ابتعد فجأة... شهق... زرع أصابعه بين أصابعي... قال بصوت لم أسمع فيه هذه النبرة من قبل:

(سأسلم نفسي الآن للكلاب التي تلاحقني... والتي لمحتها على باب الحارة... سأسرق منهم متعة ملاحقتي، وفرحة الإمساك بي... ليسوا هم من يلاحقني... ليسوا هم....

لا تبكي يا أرجوحة عمري.... كل القصور حين يحوطها الوحل تصير خياما... لا تبكي كان ينقصنا قليل من الشجر بين الأصابع...

افهمي أمراض مرضاك يا دكتورتي الرائعة كي تستطيعي احترام أوجاعهم...

كوني دائماً كما أنت... وإن تأخرتُ وقدمتْ لك الحياة شخصاً رضع الغيم... فلا تبخلي عليه بالمطر... اعشقيه إن عشق حرية هذا الخصر فيك... سأبارك أي بيت تكونين فيه أرجوك...

لا تتوسلي... فقط ارقصي... دعيني أودعك حرة بكل ما فيك... ارقصي ريثما أمضي)

لأول مرة أدركتُ حقيقة وصرامة قراره...

وقفتُ...

رقصتُ كآلهة...

ثم عرفتُ أني أرقص كأضحية على باب معبد...

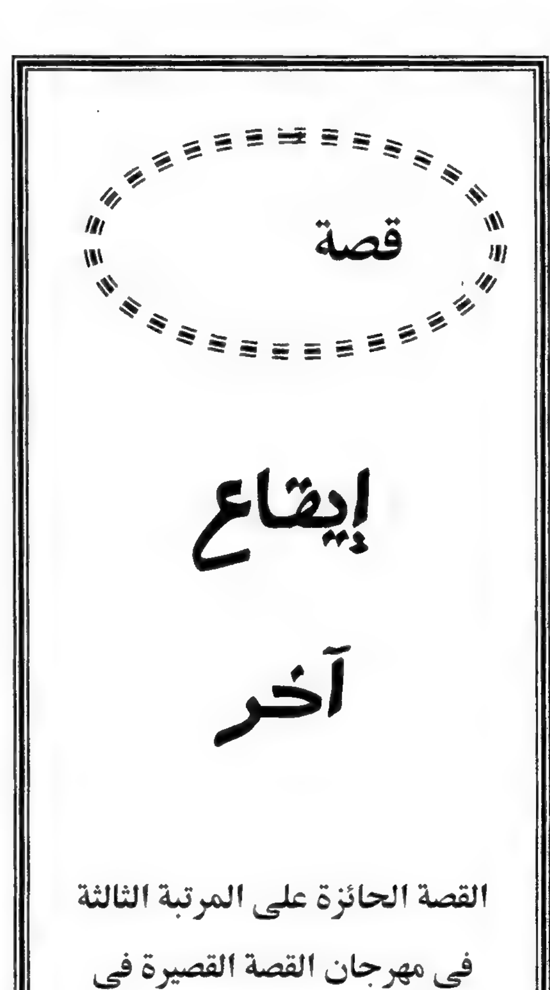
طرق الباب خلفه بقوة...

حلمي صار تحت قدمي.

وشهقتْ بي قلعةٌ...

يسكنها شبحُ امرأة

كانت تسكنني قبل الحب..



قصة

إيقاع آخر

القصة الحائزة على المرتبة الثالثة في مهرجان القصة القصيرة في الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين



بقلم: سليم عباسي

شيء سحري يلتمع على صدره..

ها هو ذا يستهجن الاختلاط بأصحابه القدامى أو عامة الناس لأنهم ليسوا من مقامه و(ثوبه لم يعد من ثوبهم). صار يجالس من هم في منزلة أرفع وخير جليس لديه كرسي دوار وثير مشرف على الجهات كافة ومنضدة ضخمة فاخَرة على شكل قوس.. حياة كلها أبهة وعظمة.. فنجان القهوة يأتيه بلمسة زر لا يختلف كثيراً عن مصباح علاء الدين، وبلمسة أخرى يختار الزائر المرغوب فيه بمساعدة السكرتير، أو يرفضه أو يؤجل موعده كما تملي عليه الظروف وراحة الأعصاب. وصل إلى هذا الكرسي بموهبة خاصة تدله من أين (تفترس) الكتف، ومعرفة جيدة بمصلحة نفسه فلديه حاسة شم لا تخيب.. يشم الدولار على بعد آلاف الأميال.

وهذا الشيء النفيس على صدره جعل أنامله تنجذب إليه بقوة مغناطيسية لمداعبته بصورة دائمة اعتادتها كما اعتادت شفتا الرضيع حلمته المطاطية، وسام ليس كباقي الأوسمة لأنه تقدمة مباركة من الزعيم الأكبر بالذات وليس من المعقول أن تتدنى قيمته عن الذهب الخالص، إنه قرص كبير يشعّ جلالاً من ذهب صاف بأربع وعشرين قيراطاً، لعبت على سطحه كتابات تقديرية باللغة الإنكليزية ورقصت أجمل الزخارف والفنون.. ولسبب ما، أصبح بيده كفأرة الحاسوب (الماوس) كلما حرّكه حركة برزت له ذكرى من الذكريات أو فكرة من الأفكار تأخذه بعيداً في الزمان والمكان..

يدق به على حافة المنضدة الفاخرة الملتفة دقات خفيفة فتصدر رنات ذات بحة خاصة، يقول في داخله مغتبطاً:

- (إنها البحة الملازمة لصوت الزعيم الأكبر هي بعينها حين أغدق عليّ واحدة من نعمه وسط حفل مهيب بكلمات تردّ الروح

وتثلج الصدر ولا تنمّ إلا عن الإعجاب والرضا. ما أجمل إيقاع الذهب الخالص تردده موجات من التصفيق!).

رنات أخرى تُسمعه إيقاع رصيد ضخم لا تأكله النيران في بلد أجنبي أمين، وربما راح ينصت إلى هدير المحركات في طائرته الخاصة المحلقة فوق أمتع مناظر الدنيا حيث يستريح قصر له صممه أمهر المهندسين وامتلأ بأفخر الأرائك والمفروشات الحالمة، قصر تتثنى في جنباته الغيد الحسان، وتنعش أنفاسه عطور السعادة، ويطيب له في ثنايا هذه الأفكار أن يُطَمئن زوجته عن بعد:

- (سأنقلكم من الجحيم إلى النعيم يا حنان)..

ولعل توارد الأحاسيس بينهما أثار طنيناً في أذنها واغرورقت عيناها بمزيج من دموع الفرح والمجهول.. ارتسم مستقبل أخضر في مخيلتها:

- (هل يفوز «بفردوسه الموعود» وحده؟ أم نعيش فيه معاً؟ سأسمع يومياً مسلسله الغرائبي وقد يرتفع حاجباي بين عبارة وأخرى لبطولاته النادرة وأطلب المزيد والمزيد مع تقديم أقداح الشاي بطعم النعنع التي كان يحبها، سأنقر على شاطئ قدحه «بصحة ولدنا» كما كنت أفعل.. سأعيد له أجواء الماضي بأشهى الأطعمة وسنغمس مع كل لقمة عشرات من الذكريات الحميمية).

يوقظها من خواطرها رشقات رصاص من بيوت قريبة..

يحرك الماوس فينتقل إلى البدايات، إلى مرحلة مختلجة بين قبول العرض ورفضه.. بين الإغراء القوي والخطر الأقوى.. يتململ في القبول فيزداد عليه الضغط الخارجي حتى يكاد أن يحطم أضلاعه، وترجح كفة الموافقة على الرغم من قلة المرونة في فقرات الظهر للانحناء بدرجة لائقة.

يأتيه صوت من أعماقه (لا ضرورة لتصلب في الرأي.. سهِّلها تسهلْ صعِّبها تصعب.. إلى متى نظل نناطح العالم بقرون منخورة؟!).

ومع هذه الهزة العصبية الإستغرابية ينزاح القرص قليلاً عن موضعه فتخرج حنان من تحت يده:

- أخاف عليك يا حبي من هذه الدرب الوعرة..

- إن دربكم هي الوعرة وبوصلتي لا تخطئ. لقد ولى الفقر إلى غير رجعة وسنعيش عيشة الملوك بأموال لا يستوعبها العقل..

- ولكن...

لكز بجهازه الصغير الأسود تلفازه ليغير الحديث، فبددت الشاشة أفكاره وأخذت ببصره إلى صور مناقضة كلياً لصور النعيم، صور المجاعات والكوارث الطبيعية.

شح البريق الذهبي.. ترنح الرنين.. وسُمعت خطوات غريبة تصدر صوت قباقيب في أزقة قديمة مبلطة، فغامت الرؤى أمام عينيه وخطف الليمون لون وجهه.. ثم توهج البريق من جديد، فيما راح هو يهرب إلى فضائية أخرى لم تكن أحسن حالاً.. داهمته أخبار القصف والتدمير وقتل الأطفال والنساء، وعشش في أنفاق سمعه البكاء والعويل.. أطلق كلمة تأوه لم تتعدّ حدود شفتيه وخاطب ضميره المتثائب:

- بئس ما اقترفت يدانا! إنهم من شعبي ومن عائلات ليست بالغريبة، أناشدك يا منجل الموت أن ترفق بأقاربي وأحبابي..

أخذت المنضدة الفاخرة الملتفة كقوس القاضي بالضمور حتى غدت كطاولة قزمة تتهزهز أمام كاتب العرائض.. وسرعان ما غطست غرفته كلها في نيران بركان ثائر وهاجمت مخيلته جموعٌ غاضبة متدافعة تحاصره وهو ينظر إليهم وجِلا من خلف نافذة

لا يخترقها الرصاص، وباضطراب واضح يوجه إلى حراسه أوامره بالتفريق.

ومن هناك.. من خلف البحار أوامر مشددة:

- عليك بهم.. إنهم يثيرون الفوضى والرعب ويهددون أمن دولة مسالمة..!

يتسلل صوتها على غير موعد محاسباً معاتباً:

- لماذا مرغت جبهة الحق بوحل الباطل؟ عرفتك خيّراً وفياً لي ولأمتك.. لمَ بدلت هويتك وأحاسيسك؟! ووضعت في صدرك قلباً غير قلبك؟! وجعلتني أعيش مع إنسان آخر؟ كم كانت الحالة أفضل لو بقينا معاً على الخبز والزعتر.. كيف ترضى لنفسك حياة العزلة وخشية الناس؟! رحم الله أيام سعادة رحلت وإذ أنت في واد وابنك وأنا في واد آخر.

- أنا عبد مأمور يا حنان وما يُقدّم لنا سمّ سقراطي لا بد من تجرّعه.. صدقيني أني أصبحت في وضع لا مجال للرجوع عنه..

يبتلع مذاقاً مخزياً يخرش بلعومه ومن ثم يعود إلى صهوة كرسيّه، يأخذ نفساً عميقاً ويدور دورة لليمين ودورة لليسار.. يرفع الوسام إلى أعلى صدره ويمشي خطوات وراء الزجاج السميك، لا أثر للجموع الغاضبة.. يطلب فنجان قهوة ليفكّ الحصار عن رأسه ويرجئ مواعيد الزيارات إلى أجل غير مسمى.

تصفعه هزات القصف وتقول له الأخبار بنبرة مثيرة إن الشهداء تتزايد أعدادهم بالعشرات والمئات، وقد أصبحت مراسم التشييع والدفن حالة مألوفة.

ينفذ بوعيه المخدّر أوامر وصلته طازجة بعدم التجمع ولو لتشييع أو دفن !

يتسارع نبضه حتى يحس كأن قلبه يقفز خارج صدره على أصوات مفزعة تطلقها خريطة المنطقة وهي تستنجد بأهلها من يد آثمة وبكل قواه يقبض على الوسام بحركة لا شعورية ويضغط عليه بكلتا يديه.

يتنقل في الفضائيات، تجلده سياط المجازر، جثث طارت بعض أطرافها.. رؤوس بلا أجسام ما زالت عيونها مصوبة نحوه ترمقه بلغة خاصة:

- أما اقشعر بدنك ووقف شعر رأسك؟! أما انتهى التثاؤب اللعين في أعماقك واستيقظت بعض ذرات من أعصابك؟! رأيناك وأنت تحوّل أموالك إلى بنوك بعيدة، سمعنا خطبك المكتوبة على نسختين مغايرتين.. تعقبناك وأنت تتجاوز الخطوط الحمراء وتعبث بالألوان جميعاً، سمعنا لسانك الداخلي ينطق بسياسة الإذعان.. يُطلب منك أن تخرس صوت الجروح لئلا تردد الصدى العربي ، أن تذبل الأزهار وتدوس البراعم لئلا تتاح لها الحياة وتسعى للثأر.. يُطلب منك أن تبدل وتغير في الزمر الدموية وتحصر كلاً منها في بقعة من الأرض مستقلة عن غيرها كل الاستقلال.. يطير صوابك لرؤية الزمر تعود متشابهة تتوحد معاً.. جثث تزحف من تحت الأنقاض وتتحول إلى شياطين مقاوِمة، رؤوس تتدحرج من بين الرافدين إلى الصخرة المقدسة إلى أشجار الأرز فإذا هي تهب واقفة تصنع المستحيل وتقلب السحر على الساحر..

تقرع الأخبار سمعك (مستوطنات تنمو.. قصف يتواصل.. مقاومة تنتشر..)، تفر بك الأفكار إلى بلاد اللوز والسكر.. تحوم حول قصرك وأموالك.. تتفقد بقية الأعوان ممن أُثقلت ظهورُهم ولانت هاماتهم.. تواجهك صور لشهداء صدعوا قلعة الأعداء، تدقق في سحناتهم.. يزداد التأمل في وجه من الوجوه، تمشط نظراتك المرتابة أعلى هامته، تنخفض إلى عينيه، تدور كذبابة عنيدة في أنحاء الوجه.. ثم يختلط انهيارك مع إيقاع ذهب سرابي أصبح كخشخشة لعروق آس يابسة..!



نحتاج مع الأديب عادل أبو شنب إلى أكثر من حوار حتى نتمكن من تغطية إنتاجاته الإبداعية المتعددة أو فلنقل إن حواراً يمكن أن يتشعب إلى حديث في الدراما، في الصحافة، في الأدب، في النقد في أدب الأطفال... وصولاً إلى الرياضة، في هذا الحوار بعض ملامح حياة عادل أبو شنب وسيرته الإبداعية.

استهلالا يقول عادل أبو شنب: كانت صدفة ربما غير سعيدة أن أصبح صحفيا، كنت أدرس في الجامعة الفلسفة وعلم النفس، وكانت لي ممارسات أدبية منها إذاعة لقصص لي في الإذاعة السورية وربما كنت أصغر قاص يذيع قصصا في أوائل الخمسينيات.

سألني مدير الإذاعة وقتئذ الأمير يحيى الشهابي ما إذا كنت أرغب في العمل في الصحافة فقلت نعم لأنني مدمن إفلاسي فأرسلوني لأحرر جريدة يومية من ألفها إلى يائها... هكذا دفعة واحدة كيف كتبت الافتتاحيات ونسقت الأخبار ورتبت الزوايا والكواليس كنت ابن كار بحق وحقيق.

* دعنا نبدأ في رحلتك حيث كانت بداية العلامات الكبرى، التي دفعتك للبحث عن أسطورتك الذاتية.

** بدأت العمل في الصحافة كنوع من الكار الموجود في البيئة فساعدت الصحافة اهتمامي بالأدب ورفدته لأنني أؤمن بأن الاستعداد لكار من الكارات هو الذي يخلق حبه، فقد أحببت لغتي ولم أبخل بتعليمها لطالبيها الذين احتكوا بي، وأنا أفخر اليوم بأنني خرجت صحافيين بارزين من مدرستي الصحفية المتواضعة. لهذا الكار أسراره فلم أبخل على طلابي بإعطائهم كلمة السر فهكذا نجحوا وأنجزت عدة مجموعات قصصية بدأت عام ١٩٥٦ (عالم ولكنه صغير) و(الآس الجميل) و(هوليا وأحلام ساعة الصفر) وأخيرا (المتفرج) التي ستصدر قريباً وهي محاولة في القصة القصيرة جداً، وأقول أيضاً أنني أحببت

القصة منذ كنت صغيرا، في حجر جدتي كنت أصغي على حكاياتها وفي المكتبة الظاهرية قرأت بواكير القصص الموضوعية والمترجمة فاعتبرت نفسي مشروعاً أدبياً. الكتابة الأدبية تحولت عندي إلى حكاية وكنت خلال مراحل حياتي أحاول التجريب في البحث عن أشكال جديدة للقص وهذا البحث شكل التفاصيل الصغيرة التي أتعرض لها ويتعرض سواي، وأظل ألح عليها وهذه من مناقبي أو من مساوئي.

* هل يمكن أن يدفعك الفضول إلى الاتجاه نحو الموت لتصل إلى الإجابات التي تعجز من الوصول إليها؟

** لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فهو سؤال مماثل الموت غياب والميت لا أجوبة عنده، كي تكون في لجة الأحداث مهما تكون صغيرة أو كبيرة عليك أن تكون حياً.

* هل تحدثني عن الجانب الأنثوي، وهل تدعو قراءاتك لاستحضاره دائماً، فما هي أهميته في حياتك الشخصية والمهنية؟

** الأنثى عندي لها قداسة لأنها الجانب الذي يعطي الحياة أو يحتضنها، إنني أقدسها وألتقط الجانب الأنثوي وأهتم به وأستحضره في كل أمر إيماناً مني بأن المجتمع متقاسم بين رجل وامرأة دائماً، فلا غنى لأحد عن الآخر وكل يكمل الثاني.

* هل الكثير من قرائك يعتبرونك معلماً ومرشداً، وإلام تحاول أن ترشدهم؟

** تحتاج الإجابة إلى استبيان رفيف فأنا لا أعرف القراء معرفة شخصية والأدب لا يرد إلى الكاتب الفرد في التعليم والتثقيف والإرشاد بل يرد إلى المضمون الذي يدور حول أدبه وعلى هذا فإن أي تأثير أدبي قراءاتي هو تأثير غير مباشر ولا يمكنني إدارته وهذا ليس من وظائفي وفي الجانب الآخر من السؤال فأنا أكتب لأرضي نفسي وأعبّر عنها أولاً ولكي أترك لوناً من الفضول عند القارئ فقد يتحول هذا الفضول إلى سؤال عن الشيء ثانيا وهو المدخل إلى التعليم.

* هل هناك تأثير مباشر لأعمالك؟

** كانت والدتي أمية لا تقرأ ولا تكتب وكان والدي بعيداً وحارة القيمرية التي ولدت فيها غارقة بالبحث عن اللقمة، والأشخاص كانوا شعبيين ثقافتهم لا تتعدى الحكواتي أو الكاراكوز وعيواظ أو الأدب الشفهي الذي يتناقل بين الناس مع ذلك نشأت محبا للقراءة والكتابة فكأنما المسألة موهبة تصاحب فرداً، وتتجاوز أفراداً، وجدتني ميالاً للتعبير بالقلم عن الظلم والمساوئ التي حولي فأنا أشكل أسطورتي الذاتية بنفسي ودونما ضغوط وتأثير وبسرعة جارفة تكاد أن تكون دفعاً لي إلى اعتماد الكتابة كاراً.

* منذ أن كنت شاباً رأيك في الكتابة الأدبية هدفك ومصيرك، الآن بعد سنوات من الممارسة ما أكثر تفاصيلها قرباً إليك؟

** أجد في أسئلتك ملاحظة مهمة، أنا يا فراس من جيل متعدد المواهب والسبب ندرة الموهوبين في هذا الزمان الذي بدأت فيه كانت البلاد بحاجة إلى صحافة إلى أدب أطفال وإلى كتابة النقد الأدبي والسينمائي والتشكيلي كانت الأرض عاقراً إلا من بعض المواهب وكان الموهوب مضطراً إلى التعددية وهكذا وجدتني بالإضافة إلى عملي في الصحافة وكتابة القصة مضطرا إلى الكتابة للإذاعة قدمت برنامجا ثقافيا مجلة تقدم الأخبار والتحليلات وتلخص المحاضرات والندوات وكتبت التمثيليات الإذاعية وطار صيتي إلى إذاعة لندن فقد أذاعت لي عدة مسلسلات إذاعية أمثال الزير سالم بثلاثين حلقة وحمزة البهلوان ووردة الصباح بثلاثين حلقة إضافة إلى حارة القصر وهو أول مسلسل للتلفزيون السوري خمسون

عاما من العطاء وأحتاج إلى الوقت لأنجز المزيد وأذاعت لي الإذاعة السورية وإذاعة صوت العرب والإذاعة السعودية عشرات الأعمال عندما ظهر التلفزيون كلفني مديره الأول الدكتور صباح قباني بأن أعد أول برنامج أسبوعي فأعدته باسم هذا الأسبوع وكتبت للتلفزيون عشرات المسلسلات والتمثيليات ويكفيني فخراً أنني كنت الذي كتب أول مسلسل تلفزيوني يمني "وضاح اليمن" وساهمت في كتابة العمل التلفزيوني الرائد "افتح يا سمسم" للتلفزيون الكويتي وأعمالي بثت في معظم تلفزيونات العالم العربي وحتى الآن لا أزال أكتب للتلفزيون لكنني لا أقبل على مؤسسات الإنتاج لأسواق أعمالي فمن يأتي إلى أعطيه وآخر محطة جاءتني art التي بعتها مسلسل العرس الكبير.

أعمالي الإذاعية التلفزيونية ليست صف كلام بل هي مأخوذة من صميم الواقع والتاريخي منها ذو إسقاطات على الواقع.

* هل تعتقد أن الموهبة كافية وحدها لتحقيق النجاح أن المهنة الأدبية متطلبات ومهارات بخلاف الموهبة؟

** لا مهارات بدون موهبة والموهبة أساس والمهارات تتراكم مع مرور الأيام فتثري التجربة الإبداعية وتغذيها ثمة كتاب يؤمنون بالمهارات ويكتفون بها، لكنني لا أرى إبداعا وإني أرى في هذه الحالة تقليداً غير مثقف وكل تقليد زائف وممتهن.

* هل للحياة لغز وعلينا ان ننتبه ونهتم للآخرين حتى نستطيع الكشف عن بعض ألا يمكن أن يشكل ذلك تعارضاً مع بعض طقوس الصرامة والعزلة التي تحتاج إليها مهنتك ككاتب؟

** المفهوم العام أنت مخلوق في هذا الكون اللغز فحياتك منذ البداية وحتى لحظة الموت لغز ومن العبث لبحث في هذا اللغز وسره لكن الإنسان بطموحه الذي يتعدى حتى المعتقدات يحاول فك اللغز وربما كانت إبداعات الكتاب في مسيرة الحياة منذ ملايين السنين وحتى اللحظة تدور في محاولة فك اللغز فحتى ينجح وكم من ملايين السنين يجب ان تمر لفكه، وإن العزلة لا تساعد في رأي على الكشف وعلى العكس الاندماج هو الذي يؤمن بذلك ويعززه.

* ما رأيك بالقصة والرواية السورية؟

** القصة والرواية السورية بعد مرور حوالي قرن على عصر النهضة نضجت تماما من حيث الشكل أو من حيث المضمون لكن لكل نوع أدبي ظروفا في الانتشار في فترة الانحسار في فترة أخرى أنا برأيي أن اليوم هو يوم الرواية السورية والقصة القصيرة منحسرة إلى حين.

* الآن بعد كل هذه العلامات وكل الإخفاقات وكل النجاحات، هل أنت سعيد؟

** أنا راض.

* الصحافة مهنة وحرفة وموهبة هكذا تقول ولقد علمت هذه المهنة للكثيرين طوال المرحلة التي عملت فيها صحفيا ماذا عن هذه التجربة؟

** صحيح منذ بداياتي في جريدة لسان الشعب التي كانت لسان حزب الشعب مرورا بجرائد الشام والجمهور والعلم التي كانت تصدر ظهرا والوحدة التي صدرت أيام الوحدة السورية المصرية والثورة وقبلها مجلة ليلى التي أصدرتاها أيام الانفصال ثم جريدة تشرين ولن أنسى العمل الصحفي الأدبي الممتاز الذي أنشأته عام ١٩٦٩ وهو مجلة أسامة للأطفال التابعة لوزارة الثقافة كما لن أنسى أنني وصنعت لبنات الصحافة موهوبون وموهوبات أمثال قسمة طوران وممدوح عدوان ويوسف مقدسي وهيفاء ناصيف إلخ..

* قلت لي مرة إنك بدأت ممارساتك الأدبية بكتابة القصة القصيرة ماذا أنجزت في عالم القصة القصيرة؟

** أرسلت أول قصة كتبتها إلى مجلة "النقاد" الأسبوعية التي كانت تصدر في دمشق بملكية المرحوم فوزي أمين ولم أكن أعرف مصير هذه القصة كنت أقطع الطريق من بيتي في القيمرية إلى منطقة باب البريد قرب المسجد الأموي حيث دكان الصحف والمجلات وهي أقرب مكان تباع فيه بقصد أن أتفقد جريدة النقاد وهل صدرت وفيها قصتي أم تصدر بعد حوالي عشرة أيام من إرسال القصص بالبريد إلى سكرتير تحرير المجلة المرحوم الأستاذ سعيد الجزائري وجدت القصة منشورة في الصفحة الثالثة مع تنويه بأن هذا القاص كاتب جديد في سورية، بقيت حوالي سنة أرسل قصصاً ومقالات إلى النقاد دون أن يعرفني أحد فيها وكانت تنشر جميعها ومنها على ما أذكر تحليل لديوان شعر للدكتور بديع حقي بعنوان سحر ومقالة عن الحب في أفواه شعراء قدامى وذات يوم أخذني صديقي الأستاذ عبد الهادي البكار إلى مكتب المجلة المواجهة لمقهى الهافانا صعدنا الدرج إلى الطابق الرابع ودخلنا فوجدت هناك الصديق صميم الزين الذي ما إن عرفني حتى هرع إلي قائلا: أين أيها القاص المبدع.

ثم زارني الأستاذ المرحوم سعيد وقال لي: ولا لزوم للإرسال تتأجل بالبريد بعد الآن وهذا صرت من كتاب مجلة النقاد الدائمين وبعد فترة عقدت صفقة سرية مع المرحوم الأستاذ الجزائري أن أكتب نقدا للقصص كل عدد وقد جمعت هذه النقود فيما بعد في كتاب نشرته باسم" من ملامح النقد الأدبي في سورية في الخمسينيات" غير أنني لم أكتف بجريدة النقاد لأنشر نتاجي فقد نشرته في مجلات وصحف كثيرة في تلك الفترة لعل أهمها مجلتا الأدب والأديب اللبنانيتان.

* هل كنت وحدك من قام بتطوير القصة في سورية حينئذ متى بدأت تفكر بالكتابة للمرة الأولى.. ماذا عن الفلكلور؟

** طبعاً لم أكن وحدي كان ثمة قاصون سوريون يفعلون الشيء نفسه لكنني كنت سباقا واليوم بعد مسيرة نصف قرن في الكتابة القصصية أجدني واقفا أتأمل إنجاز نصف قرن وربما لمت نفسي الآن لأن فعلي نال في فن الأخبار الموجودة في التراث، أتراني قد تجنبت على نهج عربي في كتابة القصة ولا يمكن الادعاء أنني وحدي المطور للقصة السورية إن هاجس التطوير ركبني باستمرار وقد أكون جنيت على القصة العربية لأنني بتطويرها ابتعدت بها عن جذورها عن الأخبار الذي هو سائد في تراثنا وقد يكون البحث عن التراث وخاصة عن تراث مدينة دمشق تكفيرا عن هذه الجناية إن كان البحث عن الفولكلور ودوافع أخرى وهي عندي كثيرة منها حبي لدمشق أحببت مدينة دمشق ولقد أعطيتها أكثر من عنوان وتعبير كتابي دمشق أيام زمان التأريخ الفولكلوري للنصف الأول من القرن الماضي عادات دمشق أسواقها ،آثارها، غوطتها، بيوتها، ناسها، وكان عندي هاجس أن اكسر نمطية السرد القصصي التي عرفتها في أواخر الأربعينيات ولهذا اعتبرت رائدا في التغيير الشكلي للقصة في سورية المسألة بسيطة الآن حيث استقرت في الفنون الأخرى أشكالها فاستقرت في السينما فن المونتاج" التقديم والتأخير" والمونولوج الداخلي واستقرت في الإذاعة اعتمادها على الأصوات ومن الفن التشكيلي مدارسه المختلفة وهكذا طورت فن القصة وكنت أنشر القصة والمقال والتحليل الأدبي وأحيانا المقال الفولكلوري منذ عام ١٩٥٠ عام ١٩٥٦ بين هذا التاريخ وتاريخ هذه السنة تكون مرت خمسون سنة على نشر أول كتاب لي مغامرة لا بد منها لكاتب اختار الكتابة كاراً أبدياً له وطبعت مطبعة الجمهورية المنشأة حديثا ٢٠٠٠ نسخة من هذا الكتاب

وقامت شركة فرج الله الأهلية بتوزيعه وبعد عدة أشهر حمل إلي المرحوم خير الله صاحب المنشأة خبر توزيع الكتاب لقد وزع ١٨٠٠ نسخة منه ألف منها في العراق فقد ولقد قرأ كتابي ألف قارئ عراقي هذا إذا لم تتداول النسخة الواحدة أكثر من يد وحوالي ٨٠٠ قارئ في سورية وفي لبنان والأردن هذا يعني أن العراق كان قارئا متابعا للإنتاج الأدبي لا في العراق وسورية فحسب بل قارئا لكل الإنتاج الذي يصله من البلاد العربية وقد سررت بهذه النتيجة وقبضت ثمن الموزع أضعاف ما أنفقته في الطباعة بفضل تشجيع العراقيين بخاصة.

راجت كتبي القصصية جميعا وراجت الكتب ذات الطابع الفني والفولكلوري وقد أعادت وزارة الثقافة طبع كتابي "مسرح عربي قديم" الذي أصدرته عام ١٩٦٤ فلم تبق نسخة وواحدة من النسخة الجديدة التي صدرت عام ٢٠٠٣.

* في أدب الأطفال أسست مجلة أسامة كما ذكرت مرة كذلك شاركت فيما أعتقد في تأسيس مجلة سامر اللبنانية ماذا يعني لك أدب الأطفال؟

** توخيت أن أكتب أدباً للأطفال وهذه مسألة حساسة فإن نكتب للأطفال مسألة ممكنة دائما ولكن أن نقدم أدبا لهم فهذه هي المعادلة الصعبة في هذا النوع الأدبي عملت مستشاراً في مجلة سامر التي كانت تصدر في بيروت وكتبن لها عددا هائلا من السيناريوهات والقصص وابتكرت شخصية القرد ميمون الذي أحبه الأطفال وجعلته بطلا لأعمال وسيناريوهات كثيرة كان يرسمها الفنان ممتاز البحرة ويعني التأسيس إنني بالاهتمام بأدب الأطفال والكبار لهم أنشد التأسيس كجيل عربي جيد معتمد على الثقافة والعلم.

* حدثني عن كتابة القصة القصيرة في سورية؟

** كتاب القصص في سورية كثر منهم من يعتبر من الجيل الأول كمحمد النجار وكمال حقي وفؤاد الشايب وعبد السلام العجيلي ومنهم من هو ينتمي على الجيل الثاني جيل النعمة وهذا درس ظهر الخمسينيات والستينات والسبعينات كياسين رفاعية ووليد إخلاصي وزكريا تامر وعادل أبو شنب ومنهم الجيل الثالث الذين نسميهم كثيرون من أمثال حسن حميد ومع الألفية الثالثة يولد الجيل الرابع وقد قرأت لكثيرين منهم رياض طبرة وأستطيع ان احكم على مسيرة القصة السورية لأنني صدمت بأشكال ومضامين غير سورية فانكفأت على نفسي وبقيت اشتغل في القصة وحيدا وأصدرت هوليا المجموعة الجزئية جدا مع الانفتاح السوري وأصدرت الآن المتفرج وحسبي أنني ما زلت أنتج.

* رأيك بصراحة في حنا مينا وزكريا تامر وياسين رفاعية وكوليت خوري وغادة السمان وجمانة طه وشوقي بغدادي وعبد السلام العجيلي ووليد مدفعي ووليد إخلاصي؟

** حنا مينا يكرر نفسه، وزكريا كذلك، ياسين رفاعية يستفيد مثلي من حرفة الصحافة ليرفد أدبه ويجدد دائماً، كوليت خوري روائية تعيش من أمجاد قصصها السامية، غادة السمان مجددة، جمانة طه أعلافها في أمثالها، شوقي بغدادي مد الله عمره شاعر قاص موجود على الساحة الأدبية منذ أكثر من نصف عام، عبد السلام العجيلي معلم، ووليد مدفعي مسرحي هام لم ينل ما يستحقه، ووليد إخلاصي أديب يعرف كيف يسوى نفسه.

والآن بعد نصف قرن من الكتابة ليس بالنضج فقط بل بالحاجة إلى الوقت لأنجز عددا من الأفكار التي أهيئها لتكون وأشعر بأن الكاتب عليه أن يستمر ويعطي باستمرار وأن لا يتوقف وأن لا ترهبه معوقات مرحلية.




قد تعلمت..

شعر: حسين أحمد عبد الرحمن

قـــد تعلَّمـــتُ مـــن ســـكوتي وعلَّمـــتُ
وصـــار الســـكوتُ عنـــدي جوابـــا
قـــد تعلَّمـــتُ أن أعـــيشَ مـــع الكتمـــانِ
درســـاً وأن أجيـــدَ الخطابـــا
وجعلـــتُ الســـرَّ المصـــونَ ســـلاحاً
أتقـــي فيـــه مـــن يـــزيحُ النقابـــا
قـــد تعلمـــتُ أن أكـــونَ وحيـــداً
لا أرى واشـــياً ولا كـــذابا
أتســـلَّى مـــع الجنـــوح إلى الظـــلِّ
المـــواري لا أقصـــد الإعتابـــا
أنـــا مشـــروعُ ناســـكٍ قـــد تحلَّـــى
بالرضـــى لا يُفنِّـــد الأســـبابا
وقريـــبٌ مـــن الحميميـــة القصـــوى
ســـعيدٌ قـــد أدمـــنَ الإحتجابـــا







قـــد تعلَّمـــتُ أن أرى المتكـــافي
مطعمـــاً والســكوتُ فيـــه شـــرابا

وانقطـــاعي عـــن الـــورى إحتفـــالاً
لا أرى وحشـــةً ولا اغترابـــا

إنـــني مـــن بقيـــة العفـــةِ الشـــماء
شـــخصٌ لا يطلـــبُ الألقابـــا

لا أرى لـــي إلاَّ الحقيقـــة خِـــلاً
وأراهـــا قـــد شـــرَّعت أبوابـــا

أنـــا منـــذ اكتهلـــتُ أبصـــرتُ دربـــي
وطلبـــتُ الإيمـــانَ والاحتســـابا

ربمـــا كنـــتُ قبـــل ذلـــك قـــد أبصـــرتُ
لكـــنني أغيـــد الشـــبابا

قـــد تعلَّمـــتُ أن أراقـــبَ نفســـي
أن أراهـــا صـــحيفة أو كتابـــا

وعـــدواً إذا تخطَّـــت حـــدوداً
لا أرى صـــحبةَ العـــدو صـــوابا

غـــير أنـــي أرجـــو ملاقـــاة ربـــي
بانقطـــاعي إليـــه أخشـــى الحســـابا




العلامة الدكتور أمجد حسني الطرابلسي ١٩١٦ - ٢٠٠١

بقلم:
يوسف عبد الأحد

أديب وشاعر وناقد وأكاديمي وأستاذ جامعي ولد في دمشق في ١٣/ ٥/ ١٩١٦، وأصل أسرته من طرابلس الشام، كان والده ضابطاً في الجيش العثماني ثم ضابطا في الجيش العربي خلال حكم الملك فيصل وتوفي عام ١٩٢٥، وكان أمجد في التاسعة من عمره فكفله جده وأرسله إلى كتاتيب دمشق ثم درس الثانوية في مكتب عنبر ونال البكالوريا قسم الفلسفة عام ١٩٣٤ وبدأ ينظم الشعر وينشره في مجلة الرسالة المصرية.

ثم عمل في التدريس الابتدائي وعيّن في خريف عام ١٩٣٥ معلماً في قرية (جباتا الزيت) جنوب دمشق.

انتسب في عام ١٩٣٦ إلى صف المعلمين العالي ونال الشهادة، فانتدبته وزارة المعارف لتدريس اللغة العربية في الكلية العلمية الوطنية.

وفي عام ١٩٣٨ نجح في مسابقة للتخصص بالأدب لمدة ثلاث سنوات فسافر إلى فرنسا وحصل على شهادة الدكتوراه في جامعة السوربون.

عاد إلى دمشق عام ١٩٤٥ وعيّن أستاذا في كلية الآداب عام ١٩٤٦ لغاية عام ١٩٥٨ وشغل خلالها منصب نائب عميد كلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٦٠ وعضوا مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٦ وعضواً مؤازراً في المجمع العلمي العراقي في بغداد عام ١٩٧٩.

واختير وزيراً للتربية والتعليم العالي والثقافة خلال فترة الوحدة بين سورية ومصر.

وفي العام ١٩٦٢ سافر إلى المغرب وعيّن أستاذاً في جامعتي محمد الخامس بالرباط ومحمد عبد الله في ·فاس) واستمر في

عمله بالتدريس في الجامعتين حتى عام ١٩٩٢ حيث أحيل إلى التقاعد.

أقام له اتحاد كتاب المغرب بالاشتراك مع جامعتي فاس والرباط حفلاً تكريمياً تقديرا لجهوده العلمية ومواقفه العلمية بين ١ و ٢ نيسان ١٩٨٧ بمناسبة مرور ربع قرن على هجرته إلى المغرب وشارك في هذا الحفل علماء وكتاب من المغرب والدار البيضاء وألقيت بحوث علمية قيمة وحول المصطلح النقدي وحول مؤلفاته ومنهجه العلمي والإشراف على الرسائل الجامعية، وافتتح الحفل التكريمي أحمد اليابوري رئيس اتحاد كتاب المغرب بكلمة جاء فيها:

"إن الدكتور أمجد طرابلسي هو أول مثقف عربي غير مغربي وإن كان في قلب المغرب وسويدائه يتم تكريمه في اتحاد المغرب ومشاركة الجامعتين تقديراً لجهوده العلمية ومواقفه القومية".

بعد إحالته على التقاعد آثر الإقامة في باريس حتى وافته المنية في ٢٨ كانون الثاني ٢٠٠١.

وهذه مقطوعة من شعره بعنوان: (أحب... ولا أحب):

أحب الجبال الشامخات كأنها
على جبهة الدنيا تصول عواتيا
تضاحك من عصف الرياح وزأرها
وتحتضن السيل الحرون المعاديا
وتلهو عن الزلزال وهو مزمجر
يضجّ ببطن الأرض غضبان واريا
واحتقر الكثبان مرعشها الصبا
ويفزعها الإعصار وإن مرّ لاهيا
وتحملها الأرياح أنّى توجهت
ألاعيب في أسفارها وألاهيا

مؤلفاته:

١- النقد واللغة في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري - دمشق ١٩٥١.

٢- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب - دمشق ١٩٥٤.

٣- النقد الشعري عند العرب حتى نهاية القرن الهجري الخامس - ١٩٥٦ (أطروحة الدكتوراه باللغة الفرنسية) نشر مترجماً إلى العربية في الدار البيضاء (المغرب) عام ١٩٩٣.

٤- شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام في أواخر القرن التاسع عشر - القاهرة ١٩٥٧ معهد الدراسات العربية العالية.

٥- مقتطفات من كتاب (زجر النابح) للمعري - تحقيق وشرح.

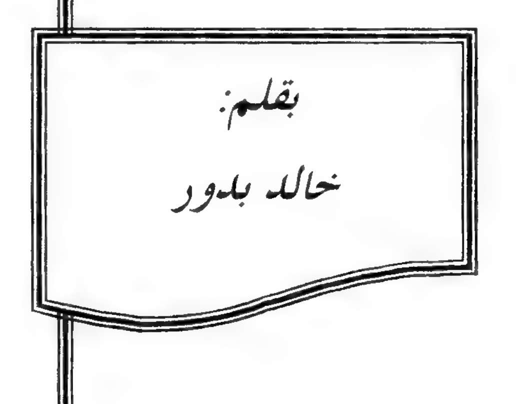
٦- ديوان شعر (كان شاعراً) منشورات المجلس القومي للثقافة العربية - الدار البيضاء - المغرب ١٩٩٣.

المحاضرات:

١- شعراء الشام والمفكرة العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين - ألقيت في الكويت ١٩٥٦ ونشرت في كتاب محاضرات الموسم الثقافي.

٢- تأملات وذكريات في حرم المسجد الجامع في قرطبة - ألقيت في الكويت ١٩٥٦ ونشرت في كتاب محاضرات الموسم الثقافي.

الحسن بن الحسن بن الهيثم



الحسن بن الهيثم هو من مواليد البصرة عام ١٠٣٨م.

وكان منذ صغره يتمتع بالذكاء وسرعة البديهة وقوة الملاحظة، وكان مولعاً بالعلم وحب الاضطلاع، وبعد أن أصبح مهندسا بدأ بالدراسة والبحث العلمي.

ابن الهيثم أول من فكر في بناء السد العالي في مصر

الحسن بن الهيثم هو أول من فكر في بناء السد العالي في مصر قبل حوالي (١٠٠٠) ألف عام من بنائه، وذلك عندما بدأ حياته العلمية والعملية بعد أن أصبح مهندساً.

ومن خلال أبحاثه ومطالعاته والمعلومات التي حصل عليها عن مصر، ونهر النيل فيها الذي كان يفيض في أيام الشتاء وتقل مياهه في أيام الصيف.

أصبح عند ابن الهيثم تصور بأنه يمكن الاستفادة من هذه الحالات لنهر النيل. وعلى اثر هذه الفكرة، وعندما كان في بغداد نشر مقالاً عن هذا الموضوع يقول فيه: "لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملاً يحصل فيه النفع في كل حالة من حالاته من زيادة أو نقصان".

ولما سمع بمقالته هذه حاكم مصر آنذاك (الحاكم بأمر الله الفاطمي) رغب بحضور ابن الهيثم إلى القاهرة، وأمده بالمال، وعندما حضر ابن الهيثم إلى مصر بناءً على رغبة الحاكم بأمر الله، بدأ بدراسة أحوال نهر النيل

بشكل عملي، حيث عاينه حتى وصل إلى الجنادل التي في شمال أسوان.

وكان بصحبته فريق من الخبراء. وهنا أدرك ابن الهيثم أن ما قصده من بناء للسد غير ممكن، وعندها عاد يملؤه الخجل.

واعتذر للحاكم بأمر الله، فقبل اعتذاره.

الحسن بن الهيثم
العالم الفلكي والبصري

لئن كان ابن الهيثم قد أخفق كمهندس لبناء السد العالي، إلا أنه كان يؤمن بالعلم التجريبي ويعمل به، كما يعترف بالبراهين النظرية السليمة. ومن هنا انطلق ابن الهيثم في علومه الفلكية، حيث ابتدع طريقة فلكية يتمكن بواسطتها من تعيين ارتفاع القطب عند أي مكان على سطح الأرض.

ومن ثم خط عرض ذلك المكان، ولا تزال هذه الطريقة تستخدم إلى يومنا هذا.

وفي مقالته السابعة من كتابه (المناظر) تتجلى بوضوح العبقرية الفائقة لابن الهيثم، حيث تعرّض لثلاث مسائل رئيسية وهي:

١- تأثير انكسار (انعطاف) الضوء عند مروره في الطبقة الهوائية المحيطة بسطح الأرض في إدراك البعد بين كوكبين.

٢- تأثير (الانعطاف) في طبقة من بخار أو ما يجري مجرى البخار أغلظ من الهواء في إدراك ومعرفة البعد بين كوكبين.

٣- بصرف النظر عن الانعطاف هناك تأثير العارض الذي يعرض في بعض الأوقات دون الأخرى، وهذه الظاهرة وحدها تجعل الكواكب عند الأفق أكبر منها وهي وسط السماء.

وهكذا صاغ ابن الهيثم نظريته في تفسير اختلاف البعد الظاهري بين الكواكب وهو تفسير صحيح مُسلَّمٌ به حتى الآن.

بالإضافة إلى ذلك فقد أعطى ابن الهيثم قوانين صحيحة لمساحات الكرة والهرم والاسطوانة المائلة والقطاع والقطعة الدائرية.

طريقة ابن الهيثم
في تعيين خط العرض

فقد ذكر ابن الهيثم أن خط عرض أي مكان على سطح الأرض يساوي ارتفاع القطب فيه، وكانت هذه الطريقة تتلخص في:

رصد الزمن الذي يستغرقه النجم للوصول من ارتفاع شرقي قريب من خط نصف النهار إلى ارتفاع غربي يساويه.

وكذلك معرفة قيمة الارتفاع الشرقي أو الغربي، وارتفاع النجم عند مروره بخط نصف النهار، ومن البديهي أن خط نصف النهار هو الخط الذي توجد عليه الشمس في أقصى ارتفاع لها أثناء النهار.

كما استخدم ابن الهيثم الساعة المائية لمعرفة الزمن، ويوقف عمل هذه الساعة على مقدار ما يتسرب من الماء داخل إناء معين.

وقياس هذا المقدار بالنسبة إلى ما يتسرب في يوم كامل.

وكذلك استخدم ابن الهيثم الإسطرلاب، وهو نوع من آلات السدس المستخدمة في علم المساحة.

في المسائل العددية

تعرض ابن الهيثم لحل الكثير من المسائل العددية، ومنها على سبيل المثال:

ما هو العدد الذي يقبل القسمة على (٧) وإذا قسم على ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ كان باقي القسمة دائماً وفي كل حالة (١) واحد.

بطبيعة الحال لكي يقبل العدد القسمة على ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ ويكون الباقي دائماً (١) يجب أن يكون العدد ٢×٣×٤×٥×٦+١= ٧٢١.

والعدد ٧٢١ يقبل القسمة على ٧.

بعض مبادئ ابن الهيثم العلمية

بعد وفاة الحاكم بأمر الله سكن ابن الهيثم أمام الأزهر الشريف.

واتخذ لنفسه حرفة النسخ والتأليف، وكرس حياته في البحث عن الحقيقة التي أحبها وأخلص لها والتي كانت مُسَيْطرةً على عقله ومشاعره.

ومن أقواله:

١- الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب والطريق إليه وعر.

٢- رأيت أني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية، وصورتها الأمور الفعلية.

٣- ما قدمت لي الحياة سأبذل جهدي وأفرغ قوتي في التأليف، متوخياً أمورا ثلاثة: أحدها: أن يجد الناس في كتبي بعد موتي الفائدة والعلم والدين أقدمها لهم في حياتي.

والثاني: أن أجعل من التأليف وتدبيج الرسائل ارتياضاً لنفسي بهذه الأمور في تثبيت ما يصوره فكري وما أتقنته من هذه الدراسات.

أما الأمر الثالث فهو: أن أدخر من تلك المؤلفات عدة لزمن الشيخوخة وأوان الهرم.

أهم مؤلفات ابن الهيثم

ألف ابن الهيثم نحو ٢٠٠ كتاب منها:

١- كتاب في الهالة وقوس قزح.

٢- كتاب صورة الكسوف.

٣- كتاب رؤية الكواكب.

٤- كتاب منظر القمر.

٥- كتاب في هيئة العالم.

٦- كتاب البصريات.




راية المجد..

شعر: نظير جابر

بــين قلــبي ومَــن يحــبُّ وجيــبُ
وهنيئــاً لمــن تحــبُّ القلــوبُ
فســليلُ الأســودِ صــلبٌ عفيــفٌ
ورفيــقُ النــدى كــريمٌ نجيــبُ
يعتلــي ســدّةَ الرئاســةِ شــهمٌ
ويســودُ الــورى فصــيحٌ خطيــبُ
لــيس بــدعاً إذا تــلألأ نجــمٌ
حفظْتُــهُ بــين الســطورِ الغيــوبُ
منهــلٌ مــن فضــائلِ ونعــيمٍ
عركتــه علــى الزمــان الخطــوبُ
فهــو في السِلمِ والســلامِ حلــيمٌ
وعلــى الســاحِ جرَّبتــهُ الحــروبُ
يكتــبُ الخلــدُ في ثنايــاهُ سِــفْراً
يتجلَّــى بــه الحكــيم الطبيــبُ
لــرؤى الأقويــاءِ يشــرقُ صــبحٌ
ويلــفُّ المستضــعفينَ الغــروبُ
ســطعتْ في الســماءِ شمــسُ رجــائي
فســمائي ترقُّــبٌ ووثــوبُ







تتبـــارى علـــى السِـــباقِ خيـــولُ
والمجلّـــي هـــو الأصيلُ المهيـــبُ
رايـــةُ المجـــدِ رفرفـــتْ في ربانـــا
وزهـــا بيننـــا الكـــريمُ الخصـــيبُ
فهنـــا تشـــمخُ الجبـــالُ فخـــاراً
وهنـــا يبـــزغُ العظـــيمُ الحبيـــبُ
وعلـــى ســـفحِنا اخضـــرارُ الأمـــاني
عطَّرَتْهـــا نســـائمُ وطيـــوبُ
مـــن ذرانـــا يشـــعُّ نـــورُ المثـــاني
وعلـــى خطونـــا تضـــوع الـــدروبُ
يتســـاوى علـــى ثرانـــا إخـــاءً
مـــن لـــه مصـــحفُ الهـــدى والصـــليبُ
نحـــن والعـــدلَ توءمـــانِ ويحلـــو
عنـــدنا الصِـــدقُ والأمـــانُ الرحيـــبُ
إن مشـــينا إلى الجهـــادِ صـــفوفاً
يـــورقِ الصَـــخرُ والكثيـــبُ الجـــديبُ
فلنـــا في الجنـــوبِ حصـــنٌ حصـــينٌ
ولنـــا في الشـــمالِ غصـــنٌ رطيـــبُ
ولنـــا النصـــرُ حيـــث شِـــئنا ويهـــوى
نهـــجَ أعمالنـــا الحســـيبُ الرقيـــبُ
لم نفـــرِّطْ بـــذرَّةٍ مـــن تـــرابٍ
تشـــهدُ القـــدسُ واللـــواءُ الســـليبُ







فـــارسَ البعـــثِ! قــد بُعثــتَ كـــبيراً
فلنـــا غيثُنـــا الـــدَفوقُ السَـــكوبُ
أنـــتَ رُبَّاننـــا إذا اصـــطخب المـــوْ
جُ وأنـــتَ المؤمَّـــلُ الموهـــوبُ
إنْ يـــكُ الحكْـــمُ يبعـــد الحـــاكمَ الفـــرْ
دَ قَصِـــيَّاً فأنـــتَ مِنَّـــا القريـــبُ
فلـــكَ البيعـــةُ الطهـــورُ وعهـــدٌ
غرســـتهُ بـــين الضـــلوع الشـــعوبُ
تزدهـــي أرضـــنا الغنيَّـــةُ وعـــداً
يتســـامى بهـــا شـــبابٌ وشـــيبُ

* * *

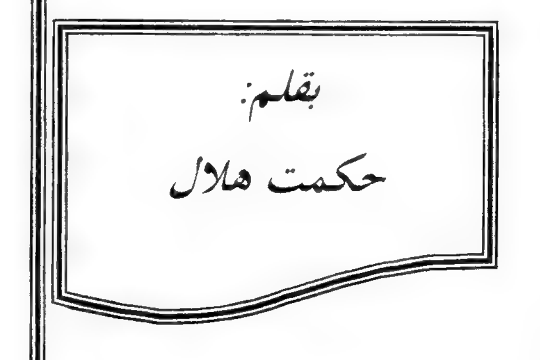
حـــافظَ الـــدار! لـــيس إلاّكَ عونـــاً
ومـــلاذاً، إليـــك طوعـــاً نـــؤوبُ
فلنـــا في صـــمودنا صـــهواتٌ
ولـــدينا أظـــافرٌ ونيـــوبُ
وبنـــا تـــزرعُ العزيمـــةُ نخـــلاً
وبنـــا يـــنجحُ الصَـــبورُ الـــدؤوبُ
فـــإلامَ نخشـــى صـــروف الليـــالي؟
وإلامَ يصـــبو زنـــيمٌ لعـــوبُ؟
قـــد عرفنـــا النضـــالَ دهـــراً طـــويلاً
ولنـــا عودنـــا القـــويّ الصَـــليبُ

* * *

دم عزيـــزاً يغـــرِّدِ الفجـــر لحنـــاً
سندســـيَّاً ويصـــدحِ العنـــدليبُ




فضل الشاعرة اليمامية جارية المتوكل



من ربات الفصاحة والبلاغة، شاعرة من الشواعر المجيدات في العصر العباسي. بارعة الحسن والجمال، والقد والاعتدال، سمراء اللون أديبة فصيحة اللسان سريعة البديهة مطبوعة في الشعر، تناظر الشعراء وتحاورهم.

كانت تجلس في مجلس الخليفة المتوكل على كرسي تعارض الشعراء. فكانت تهاجي الشعراء ويجتمع عندها الأدباء ولها في الخلفاء والملوك مدائح كثيرة فكانت تتشيع وتتعصب لأهل مذهبها وتقضي حوائجهم عند الملوك والأشراف.

روى أبو الفرج عن أبي العيناء قال: "لما دخلت فضل الشاعرة على الخليفة المتوكل يوم أهديت إليه. قال: أشاعرة أنت؟ قالت: كذا يزعم من باعني واشتراني. فضحك، وقال: أنشدينا شيئا من شعرك. فأنشدته: (من السريع)

استقبل المُلك إمامُ الهدى
عامَ ثلاثٍ وثلاثينا

(تعني سنة ثلاث وثلاثين ومئتين من سني الهجرة)

خلافة أفضت إلى جعفر
وهو ابنُ سبعٍ بعد عشرينا
إنّا لنرجو يا إمامَ الهُدى
أن تملك المُلك ثمانينا
لا قدّس الله امرءا لم يقُلْ
عند دعائي لك: آمينا

فاستحسن الأبيات وأمر لها بخمسة آلاف درهم، وأمر عريباً فغنت فيها.

عشقت عيد بن حميد، وكان من أشد الناس نصبا وانحرافاً عن أهل البيت، وكانت فضل نهاية في التشيع، ظاهرته ثم انتقلت إلى مذهبه. ولم تزل كذلك إلى أن توفيت. وكانت مولدة من مولدات البصرة.

ولدت ونشأت في دار رجل من عبد القيس، ثم باعها بعد أن أدبها وخرجها، وكانت فضل تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء، فألقى عليها أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي هذين البيتين: (من الكامل)

قالوا: عشقت صغيرةً فأجبتهم
أشهى المطيّ إليّ ما لم يركبِ
كم بين حبّة لؤلؤٍ مثقوبةٍ
كبست وحبّة لؤلؤٍ لم

فقالت فضل ردّاً عليه:

إنّ المطية لا يلذُّ ركوبُها
حتّى تُذلّلَ بالزّمامِ وتُركبِ
والدرُّ ليس بنافعٍ أربابهُ
حتى يُؤلّف بالنظام ويُثقبِ

وعن أبي العباس المروزي قال: "قال المتوكل لعلي بن الجهم: قل بيتاً وقل لفضل الشاعرة تُجيزه فقال علي: أجيزي يا فضل: (من مخلع البسيط)

لأدبها يشتكي إليها
فلم يجد عندها ملاذا

فأطرقت ثم قالت:

ولم يزل ضارعاً إليها
تهطلُ أجفانُهُ رذاذاً
فعاتبوه، فزاد عشقاً
فمات وجْداً فكان ماذا؟

وعن سعيد بن حميد قال:
قلت لفضل الشاعرة أجيزي: (من الخفيف)
منْ لمحبٍّ أحبَّ في صغره؟

فقالت:
صار أحدوثة على كِبَرِهْ
وألقى عليها بعض الشعراء قوله: (من الطويل)

ومُستفتح باب البلاءِ بنظرة
تزوّد منها قلبُهُ حسرة الدهر

فأجابته مسرعة:

فو اللهِ ما يدْري: أتدري بما جنت
على قلبهِ، أم أهلكتْهُ وما تدري؟

وخرج المتوكل متوكئاً على جاريتيه: فضل وبنان، فقال لهما أجيزا: (من الطويل)

تعلّمتُ أسباب الرضى خوفَ سخْطه
وعلّمهُ حُبّي له كيف يغضبُ

فقالت فضل:

يصُدُّ وأدنو بالمودّة جاهداً
ويبعدُ عني بالوصال وأقرب

فقلت:
من نظرٍ شَفَّهْ وأرّقَه
فقالت:

لولا الأماني لمات من كمدٍ
مرُّ الليالي يزيدُ في فكرهْ
ليس لهُ مُسعدٌ يُساعدُهُ
بالليلِ في طُولهِ وفي قصره

قال سعيد بن حميد: والله لو أخذ أفاضل الكتاب وكبراؤهم وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك.

وكتبت فضل إلى عشيقها سعيد بن حميد: (من الطويل)

وعيْشك لو صرّحْتُ باسمك في الهوى
لأقْصرتُ عن أشياء في الهزلِ والجدِّ
ولكنّني أبدي لهذا مودّتي
وذاك، وأخلو فيك بالبثِّ والوجْد
مخافة أن يُغري بنا قولُ كاشح
عدوّاً فيسعى بالوصالِ إلى الصّدِّ

فكتب إليها سعيد بن حميد (من المتقارب)

تعالَيْ نُجدّدُ عهد الرِّضا
ونصفحُ في الحبِّ عمّا مضى
ونجري على سُنّةِ العاشقين
ونضْمنُ عني وعنكِ الرِّضا
ونخضعُ ذلاً خضوع العبيدِ
لمولى عزيزٍ إذا أعْرضا

فصارت إليه وصالحته
وكتبت فضل إلى سعيد بن حميد رقعة فيها هذان البيتان: (من الكامل)

الصبرُ ينقصُ والسّقام يزيدُ
والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنّهُ
لا يستطيع سواهما المجهودُ

فمضى إليها فقالت:
هو ذا أموتُ وتستريح مني
فأنشأ يقول: (من البسيط)

لا مُتِّ قبلي بلْ أحيا وأنت معاً
ولا أعيش إلى يوم تموتينا
لكنْ نعيشُ بما نهوى ونأمُلُهُ
ويُرغمُ الله فينا أنف واشينا
حتى إذا قدّرَ الرحمنُ ميتتنا
وحان من أمرنا ما ليس يعدونا
متنا جميعاً كغُصْني بانةٍ ذبُلا
من بعد ما نضرا واستوثقا حينا
ثمّ السّلامُ علينا في مضاجعنا
حتى نعود إلى ميزان مُنْشينا

ومن قولها في الصحو: (من مجزوء الرمل)

قد بدا شِبْهُك يامو
لاي يحدو وبالظلام
فانتبه نقض لُبانا
ت اعتناقٍ والتثام
قبل أن تفضحنا عوْ
دة أرواح النِّيام

ومن شعرها: (من البسيط)

لأكتمنَّ الّذي في القلبِ من غُصصٍ
حتى أموت ولم يشعرني النّاس
ولا يقالُ: شكا منْ كان يعشقُهُ
إنَّ الشّكاة لمن تهوى هي الياسُ
ولا أبوحُ بشيءٍ كنت اكتمهُ
عند الجليس إذا ما دارت الكاسُ

قال أسامة بن مرشد في أخبار النساء:
كتبت فضل الشاعرة إلى سعيد بن حميد قالت: "فأن قطعت عنّا عادة البرّ تمسّكنا بعادتنا في الشكر، وحملنا الذنب على الدهر، وإن تكن الأخرى فلم نعدُ الظّن، ولم تأت بديعاً من الأمر، وافتقد سعيد فأرسلت إليه فضل الشاعرة هدايا، فكان منها ألف جدي وجمل، وألف دجاجة فائقة، وألف طبق ريحان وفاكهة وطيب كثير، وشراب وتحف حسان"
فكتب إليها سعيد: "إن سروري لا يتم إلا بحضورك"

فجاءته في آخر النهار، ثم استأذن غلامه بْنانٌ فأذن لـه، فدخل وهو يومئـذ شاب طويـل حسن الوجه، حسن الغناء، نظيف الثياب، فـذهب بها كل مذهب، وأقبلت عليه بحديثها ونظرهـا، فعتب عليها سعيد واستطير غضباً ولامها، وتبـين بنان القصة فأنصرف وأقبل عليها سعيد يعذلها ويؤنبها فكتبت إليه تقول: (من مجزوء الكامل)

يـا مَـنْ أطلْتُ تفرُسـي
فـي وجهـه وتنفسـي
أفـديك مـن مُتَـدلِلٍ
يزهـو بقتـل الأنفُـس
هبْنـي أسأت ومـا أسـا
ت بلـى كـإقرار المسُـي
أخلقتنـي أنْ لا أسـا
رق نظْـرَةً فـي مجلسـي
فنَظَـرْتُ نَظْـرَةَ مُخْطـئ
أتبعتُهـا بتفرُسـي
ونسـيت أنـي قـد حلـفـ
تُ فما عقوبـةُ مَـنْ نسـي؟

فقام سعيد فقبل رأسها وقـال: "لا عقوبـة عليه بل تحتمل هفوته ونتجاوز عن إساءته"

وبلغ فضل الشاعرة، وكانت تهوى سـعيد بن حميد أنه قد عشق جارية من جـواري القيـان فكتبت إليه: (من المنسرح)

يـا عـالي السـنَ سـئ الأدب
شـبْت وأنـت الغـلامُ فـي الطَّـربِ
ويْحـكَ إنّ القيـانَ كالشَّـركِ الـ
منصـوب بَـيْنَ الغُـرور والعَطَـبِ
لا يتصـدّيْن للفقيـر ولا
يطلـبن إلا مَعـادن الـذَّهَب
بيْنَـا تشـكّي هَـواكَ إذ عَـدلت
عـنْ زفـرات الشـكى إلـى الطَّلـب
تلحـظُ هـذا وذا أو ذاك وذا
لَحْـظُ مُحـبٍّ بعـين مكتسـب

وبلغ بُناناً هذا عن فضل الشاعرة ما يكـره فتجنبها، فصارت إلى علي بن يحيى مستعتبة لـه، وسألته أن يجمع بينها لتحلف لـه، ففعل علي بن يحيى. فلما حلفت لـه قبل، وأقال عند علـي بـن يحيى فلما دار الشراب بينهما قالت: (من السريع)

يـا فَضْـلُ صـبراً إنَّهـا ميتَـةٌ
يجرعهـا الكـاذب والصَّـادق
ظـنَّ بْنـانٌ أنّنـي خُنتُـهُ
روحـي إذاً مـن بـدني طـالق

فكانت رحمها الله حاذقة بارعة من ربـات الفصاحة والبلاغة، داعيةً للبر والإحسان، كريمـة الخلق حسنة الوجه، حادة الفطنة والذكاء والفهـم توفيت سنة ٢٦٠ هـ ولم يكن في نساء زمانهـا أشعر منها.

آراء الشعراء والكتاب فيها:

- قال إبراهيم بن المهدي في فضـلِ الشـاعرة: "كانتِ فضل أحسن خلق الله خطـا وأفصـحهم كلاما".
- وقال فيها سعيد بن حميد: "لـو أخـذ أفاضـل الكتاب أماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك".
- وقال ابن المعتز: "كانت فضل تهاجي الشـعراء ويجتمع عندها الأدباء، عنـدها وجاهـة عنـد الملوك والخلفاء".
- وقال محمد بن داود بن الجراح الكاتب في كتاب (الورقة): "فضل الشاعرة أشعر امرأة كانت في هذا العصر".
- قال ابن النجار: "كانت شاعرة ماجنة من أظرف أهل زمانها، ولها أخبار ملاح مدوّنة".
- قال أبو الفرج الأصبهاني: "سـريعة الهـاجس، مطبوعةً في الشعر كانت تجلس فـي مجلـس المتوكل".

نظرية التلقي...

القارئ شريكاً

بقلم:
محمد دعاوي

تعود نظرية التلقي إلى الألماني هانس ياوس الذي أسس مع زميله إيزر مدرسة كونستانس وقد تشكلت هذه النظرية في الفضاء الألماني. وينزع ياوس إلى تأسيس اتجاه نقدي من شأنه توطيد علاقة النص والقارئ بالتاريخ حاضرًا ومستقبلًا ويضفي على النظرية الأدبية بعدًا تاريخيًا وبذلك يرد على البنيوية وعلى النظريات التي تجعل الأدب انعكاسا للتاريخ وبذلك يصبح الأدب وسيطًا بين الماضي والحاضر فالعمل الأدبي ليس هو النص الحالي فقط.

إن الأدب من وجهة نظر ياوس لا يقف عند حدود البحث والتحليل الأدبي فقط بل يرتبط بالبعد الاجتماعي مختلفًا مع الماركسيين والشكلانيين لكنه لا يلغيهما فقد اتجه للإفادة من الجانب التاريخي للماركسية واهتم بالبعد الجمالي عند الشكلانية وبذلك جمع بينهما وتجاوزهما معا.

ويمكن أن نميز في نظرية التلقي بين مظاهر ثلاثة: المظهر التعاقبي من استقبال النصوص الأدبية عبر التاريخ والمظهر التزامني أي الاعتناء بالبنية الشكلية للنصوص وثالثا الربط بين التطور الداخلي للنص وتطور التاريخ إذ ثمة هيمنة وتأثير للفعل التاريخي للنص.

ينتقد ياوس المذاهب الأدبية قديمها وحديثها دون أن يلغيها بل على العكس يقيم حوارا بناءً معها ونشهد معه في نظرية التلقي وللمرة الأولى على امتداد النظرية الأدبية تحول الاهتمام نحو القارئ والنظر إليه كشريك رئيسي في عملية التواصل الأدبي فالقارئ هو الذي يسعى في عملية القراءة إلى تقديم الحضور الفعلي للنص فالنص كائن ميت ما لم

يأت القارئ ويهبه الحياة ويتجاوز ياوس الوقوف عند النص أو المؤلف ليشمل مستقبل الرسالة الأدبية/ القارئ أو الجمهور المتلقي.

ليس من السهل تفهم الآليات التي تحكم العلاقة بين النص و القارئ لأن هذه العلاقة معقدة إلى درجة كبيرة فلهذا نجهل ما الذي يحدث عند ما يواجه القارئ نصا وكيف يتفاعل معه وكيف يفهمه فالعلاقة بين القارئ والنص تتسم بالتعقيد وإذا كان الأمر يهم علم النفس فقد نشأ علم جديد يسمى علم لغة النص ويقدم هذا العلم تعليلات عميقة للعلاقة بين القارئ والنص ويطلق على العلاقة التي تنشأ بين المتلقي والنص ما يسمى باستراتجيات القراءة.

في كتابه نحو جمالية التلقي يتساءل ياوس عن وظيفة الأدب وعلاقتنا بالنصوص السابقة وكيفية تناولنا العصور القديمة من منظور المعاصرة ويهتم ياوس بتجربة التلقي عند القارئ العادي أولا لأنه هو المقصود بالنص أكثر من المؤرخ أو الناقد وعند تجربة القراء الأوائل ثانيا وينظر إليه بوصفه السبب الرئيسي لوجود هذه النظرية.

طرح ياوس ومن قبله جادامر في كتابه الحقيقة والمنهج مفهوم اندماج الآفاق الذي يعني لقاء أفق الحاضر مع أفق الماضي فلا يستطيع أفق الحاضر أبدا أن يتشكل دون الماضي إضافة إلى أنه لا يوجد أفق للحاضر يمكنه أن يوجد إذا لم توجد آفاق تاريخية نتواصل معها وقد تلقفت نظرية التلقي هذا المصطلح وتبنته كأحد المفهومات بين التوقعات الأولى التاريخية للأعمال الأدبية والتوقعات المعاصرة وقد سمى جادامر هذا المفهوم بمنطق السؤال و الجواب الذي يحصل بين القارئ والنص عبر مختلف الأزمان وسيكون لهذا المفهوم تأثير كبير في الدراسات النصية والتأويلية المعاصرة.

وهناك من يرفض أن يكون للنص سؤاله فالمعنى ليس في النص ولا في القارئ وإنما تحدده الأعراف والمواضعات التي تحيط بالقارئ على رأي فيش

يعد أفق التوقع ركنا أساسياً في نظرية التلقي ويحدد بوصفه منظومة من المعايير والمرجعيات لجمهور قارئ في لحظة معينة يتم انطلاقا منها قراءة عمل وتقويمه جماليا وطالما استمرت القراءة بقي أفق التوقع عاملاً ونشيطا يتابع الحدث ويتغير معه وربما يختلف عنه لسبب يكمن في ثقافة المتلقي إن أفق التوقع/ الانتظار هو المعيار الأساسي في الزحزحة أو عدمها التي يحققها النص الأدبي فعن طريق التطابق أو التباين بين أفق التوقع لدى النص تتحدد جماليات النص ووجهة نظره تجاه الواقع التاريخي وينقسم أفق التوقع إلى أفق توقع الجمهور وأفق توقع العمل فالأول قائم على التجارب الجمالية والتراكمات الثقافية لجمهور القراء والثاني متوافق مع مفهوم القارئ الضمني فيكون مبثوثاً في العمل يحمله الكاتب رؤيته لنوعية الجمهور الذي يتوجه إليه أو يوجهه إلى قراءة معينة أو الاثنين معا لكن هذا لا يعني خضوع القارئ لتوجهات المؤلف وآرائه بل على العكس يظل موقف القارئ الموقف المبدع هو الأساس في عملية الفهم الجمالي والقصدي للعمل.

بين أفق توقع الجمهور وأفق توقع العمل هناك مسافة فقد يلتقيان وقد يفترقان ويرى هنري باجو أنه إذا انزاح أفق الجمهور عن أفق العمل فإن هذا الأخير يلقى الرفض والاستنكار وعدم الفهم ولكن أيهما الأميز بالنسبة للعمل تطابق الأفقين أم اختلافهما إن

اختلافهما يمنح النص انفتاحاً وحركية وهذا ما تطمح إليه نظرية التلقي وإلا كيف نطابق بين قصدية نص قديم وأفق توقع جمهور معاصر وينبغي لنا أن ننظر بجدية إلى انصهار أفق النص وأفق المتلقي فالعملية ليست سهلة وكثيراً ما يكون النص غامضا ولا يسمح بهذا الانصهار كنصوص المتصوفة.

قدم إيزر مجموعة من المفهومات أهمها القارئ الضمني الذي يعرفه بأنه بنية نصية نستطيع بواسطتها أن ندرس تنظيم النص أو يمكن من خلاله أن نقيم جسراً بيننا وبين النص. ومفهوم وجهة النظر الطوافة أو الجوالة التي تتيح للقارئ أن يتحرك داخل النص كاشفا خلال ذلك المنظورات المختلفة التي يترابط بعضها ببعض ثم تعدل من المعنى في القراءة والانتقال من منظور إلى آخر فنحن عندما نقرأ عملاً أدبياً نحاول أن ندرك الأحداث ونفهمها بالاعتماد على توقعاتنا المستقبلية والخلفية الفكرية التي نحملها من الماضي وعند حدوث شيء غير متوقع أثناء عملية القراءة نقوم بإعادة صياغة توقعاتنا وفقاً لهذا الحدث ونعيد تفسير المعنى الذي نسبناه إلى ما سبق وقوعه وتسهم هذه العملية في بناء الانسجام والتآلف بين أجزاء النص الواحد التي تبدو أحيانا منفصلة.

القارئ هو الجهة الأهم في تحديد معنى العمل الأدبي ضمن سياقه التاريخي وهو القادر على إعطاء قيمة تاريخية للعمل الأدبي وتوضيح مستواه الجمالي وقد استطاع مفهوم القارئ أن يدخل إلى النقد الأدبي الشكل الحواري للتفاعل الذي يقوم بين القارئ والنص و ضرورة الاهتمام بالقراءات الجماعية الثقافية وأن يخلص النص من التصور الجامد والركود والموت.

إن صورة التلقي وشكل المتلقي موجودان في العمل نفسه في علاقته بما سبقه من نصوص ويستند الجمهور المتلقي على ذخيرة سابقة تهيؤه للاستقبال، وعلى تطو ر مستمر لأفق العمل ولأفق توقعات القارئ التي تتغير وتتعدل باستمرار وبالتالي تعيد إنتاج النص من جديد.

إن القارئ والنص كليهما يعملان على إنتاج المعنى وبذلك لا يحتكر القارئ السلطة أو ينفرد بها بل تخضع عملية القراءة للتفاعل والحوار بين القارئ والنص وكل لقاء بينهما هو حوار واستجابة.

وكل قراءة تقدم معنى جديداً وتفسيرا/ تأويلاً جديدًا وهذا يقودنا إلى النص المفتوح النص الذي لا نهاية له فالنص ليس منجزًا وليس ثابتًا أو نهائيًا أو مغلقًا وكل قراءة جديدة للنص هي حياة جديدة وولادة جديدة له. والنص من هذا المنظور متعدد الدلالات والمعاني متعدد التفسيرات و التأويلات بتعدد القراء والمتلقين.

لقد أفسحت نظرية التلقي المجال للقارئ ليأخذ مكانه إلى جانب المؤلف ويكون شريكًا له في العملية الإبداعية التي تقوم على ثلاثة أركان: المؤلف والنص والقارئ غير أن النظريات النقدية في السابق لم تولي الأهمية إلا لأقنومين في هذا الثالوث الإبداعي فبينما بقي الضوء مسلطًا على المؤلف والنص أهمل دور القارئ /المتلقي/ الجمهور حتى جاءت نظرية التلقي في أواخر العقد السادس من القرن العشرين فأعطت للمرة الأولى في تاريخ النقد الأدبي دورًا مهمًا للقارئ في الإبداع الأدبي والنقدي وبوأته المكانة اللائقة به كشرك حقيقي وفعلي للمؤلف.